shero4jesus@gmail.com

كتاب

تاريخ

الامة القبطية

(وكنيستها)

﴿ تأليف السيدة ا.ل. بتشر الانكليزية ﴾

﴿ المجلد الاول ﴾

« ثمن جميع المجلدات اربعون غرشاً صاغاً »

(طبع على نفقة صاحب جريدة مصر)

سنة ١٩٠٠ افرنكية الموافقة سنة ١٦١٦

طبع بمطبعة مصر بالفجاله

مقدمة المؤلفة

ان الغرض الذي لاجله وضعت هذا الكتاب التالي هو الابحاث التي وصل اليها جمهور المؤرخين والباحثين فيما يتعلق ببقية الامة المصرية القديمة أو هم الاقباط وهو يبتدئ من تاريخ دخول الديانة المسيحية هذه البلاد لحد الآن . وتاريخ هذه الامة ممتزج من اوله لآخره باقوام كثيرة مختلفة اغارت على البلاد وملكتها من رومان وارومام وعرب واكراد وشراكسة واتراك وغيرهم وهم الذين ادلوا المصريين وجعلوا بلادهم مستباحة لهم . ولقد اسفر بحث الباحثين المدققين على ان اعقاب المصريين الاصليين الباقين الى الآن هم الاقباط المسيحيين لا المسلمين وهم الذين عنيت انا بعد عناء كثير وشغل متواصل بوضع هذا التاريخ الوافي عنهم ليسهل على القراء ومعرفة اصلهم ونسبهم وديانتهم بدون تعب

والذي حدى بي الى هذا العمل هو اولاً رغبتي في افادة الطلاب بتاريخ هذه الامة القديمة وثانياً اقامتي مدة عشرين سنة في القطر المصري اذ قدرت ان اطوف جائلة في اكثر القرى والكفور حيث رأيت فيها المسيحيين الاقباط لازالوا على عهدهم الاول من التمسك بالعقائد والتقاليد القديمة المنقولة عن الآباء الاولين حيث سمعت من افواه البسطاء حكايات وروايات عما كان للمصريين من المجد والسؤدد مما اثبته البحث واكده العلم . ولقد تعبت كثيراً في الوقوف على الازمنة الصحيحة واست اقول انني في عصمة في عملي هذا ولكنه يمكن ان يكون اكثر من غيره ضبطاً واتقاناً . فاذا قام احد غيري وكتب تاريخاً اصح من هذا فلا ريب ان معظم الفضل ينسب اليّ لانني السابقة في حلبة هذا الميدان وكنت قد وضعت جدولاً يحتوي اسم كل ملك او وزير او امير او خليفه او سلطان او بطريرك له علاقة بمصر او ملك عليها ولكنني

رايت نشره لا يفيد القراء كثيراً لطوله فاقتصرت على نشر جدول البطاركة فقط .

ولا ريب في ان القراء سيجدون اختصاراً كثيراً في الاربعة القرون الاولى فيما يختص بالامور اللاهوتية ولكنهم سيشكرونني كثيراً لانني توسعت لم في ذكر حوادث نحو ١٩٠٠ سنة تبتدئ من حكم البطالسة لحد الآن

ولست اخفي عن القارئ الحيرة التي وقعت فيها في اختيار بعض الحقائق التاريخية التي كنت اشك في صحتها لانها كتبت بايدي اناس لا اشك في تحيزهم ووجود نزاع لم مع الذين كتبوا عنهم كتاريخ القرن السابع مثلا الذي كتب اكثره جماعة المسلمين عن المسلمين انفسهم ولكن على اي حال فان تاريخ الكنيسة القبطية اجمالياً لا يقل في الفخر والمجد عن تاريخ كنيسة اخرى غربية بل قديذري باكثرها . فانه اذا كان الانكليزي مثلا يفتخر بمجد كنيسته وقديسها فيجب عليه ان يتذكر انه في المسيح لا فرق بين اليهودي واليوناني ولا تمييز بين العبد والحر . كذا لا يعرف المسيح يونانياً او رومياً انكليزياً او مصرياً بل الجميع سيقفون امامه يوم الدينونة ويقدمون حساباً عما جنته ايديهم . اذاً فالعبرة ليست بالكنيسة او بالجنسية بل بالايمان والاعمال

اما تاريخ الكنيسة القبطية وحدها فقد كتبه كثيرون من اعاظم رجالها الاولين بداء بكتابته سويرس اسقف الاشمونين (مركز ملوي بمديرية اسيوط) في النصف الثاني من القرن العاشر واتمه ميخائيل اسقف طانيس لحد سنة ١٢٤٣ وقد بقيت نسخة واحدة من هذا التاريخ هي الآن موجودة في باريس ولم يعتن احد بترجمتها الى احدى اللغات الاوروبية وقد اخذت هذا التاريخ من عدة مؤلفات كثيرة بينها كتابان قبطيان عظيما القيمة اعتمدت عليهما في اكثر الحقائق التي نقلتها

هذا ولا يسعني الا الثناء الكثير على حضرات مرقص بك سميكه الذي ساعدني كثيراً في وضع هذا الكتاب والاستاذ فولر بالكتبخانة الخديوية والقربني الذي اخذ بيدي ومهد لي سبل الصعوبات الجمة التي اعترضتني في طريقي ولا زلت مديونة له في كل عمل من الاعمال

(الامضاء)

تحريراً بكنيسة القاهرة سنة ١٨٩٧ (مسز) ا . ل . بتشر

فهرست المجلد الاول

		وجه
الفصل الاول	مجيء القيصر الى مصر	١
« الثاني	مجيء المسيح	١٤
« الثالث	كرازة مار مرقص	٢٣
« الرابع	بطريرك واحد وسبعة قياصرة	٣٣
« الخامس	رواد النيل في القرن الثاني	٤٣
« السادس	المدرسة اللاهوتية الاولى	٥٢
« السابع	اوريجانوس	٦٢
« الثامن	اضطهاد ديثيوس للمسيحيين	٩٦
« التاسع	اضطهاد فالريان للمسيحيين	١٢٢
« العاشر	مار آمون ومار انطونيوس	١٤٦
« الحادي عشر	الجهاد في سبيل الحرية	١٥٥
« الثاني عشر	تاريخ الشهداء	١٦٩
« الثالث عشر	جدال اريوس	١٩٦
« الرابع عشر	البدعة والانشقاق	٢٠٨
« الخامس عشر	غريغوريوس وجورجيوس من كبدوكية	٢٣٣
« السادس عشر	اوبة اثناسيوس و وفاته	٢٥٨
« السابع عشر	انتحار الامة المصرية	٢٧١
« الثامن عشر	آخر اسقف آريوسي في الاسكندرية	٢٨٥
« التاسع عشر	سقوط هيكل سيرابيس	٣٠١
« العشرون	الاخوة الطوال القامة	٣١٨
« الحادي والعشرون	سينيثوس الثوريني	٣٣٩

مقدمة

صاحب جريدة مصر
(الذي وقف على طبع الكتاب)

اذا قرأ القارئ تاريخ الامة القبطية التي عنت بوضعه هذه السيدة الانكليزية الفاضلة يرى انها أمة لم ير لها نظير بين أمم الارض في المصائب التي تراكمت عليها من سيف ونار واضطهاد وعذاب وحروب داخلية وخارجية وثورات اهلية وغارات دينية وغير هذه البلايا التي لو حاقت واحدة منها بأقوى أمم الزمان لما بقي لها في عالم الوجود وجود. ان القاريء الفطن اذا انعم نظره في هذه النكبات التي حلت بهذه الامة الاسيفة مدة عشرين قرناً لابد وان يشفق عليها ويرثي لتضعضع حالها الحاضر ويرى انها قاومت الدهر بقوة تخالف القوة المحدودة في الناموس الطبيعي

ولا مراء في ان الامة القبطية الحاضرة بما عرف عنها من الذكاء الحارق والفطنة الموروثة تستفيد من تاريخها هذا فائدة لا تجدها في غيره اذ تقف على حقيقة ما فيها باجلى بيان وتجلى لها مجدها القديم الذي انهار وضاع فتعمل على استرجاعه وتعرف قوة آبائها وسؤددهم فتسعى في اعادته وازاحة الستار عنه

ومعلوم للقراء ان هذا التاريخ يمتاز عن غيره من التواريخ الاخرى التي كتبت عن الامة القبطية في انه صحيح دقيق لم يترك شاردة إلا وسجلها في باطنه فضلاً عن انه كتب بروح خالية من الغرض أو الجبن الذي اضاع اكثر الحقائق التاريخية في التواريخ الاخرى التي لها علاقة بالقرن السابع كما شهد بذلك كل من قرأ التواريخ التي ظهرت مؤخراً بشأن هذه الامة فانه يجد روح الخوف من لا شيء يرف على كل صفحة من صفحاتها

هذا وكنا قد عزمنا على اصدار هذا التاريخ في مجلدين ولكن لطوله وكبر حجمه وتشوق الناس الى قراءته اصدرنا هذا المجلد بعد تقسيم الاصل الانكليزي الى اربعة مجلدات سيبرز الثاني والثالث والرابع منها بالتوالي عن قريب

ونحن واثقون في ان اقبال الادباء عليه يكون بموازاة اهميته وفائدته

هذا ولا يسعنا إلا امتداح غيرة وهمة حضرة النشيط اسكندر افندي تادرس احد موظفي نظارة الداخليه الذي عني بترجمة هذا الكتاب بالدقة التامة واحكم تطبيق الترجمة على الاصل كما شهد بذلك النابغون في اللغة الانكليزية من ابناء أمتنا القبطية الذين راجعوا الترجمة بامعان وحكموا بصحتها نفع الله بمثله وامثالهم الامة والوطن

﴿ تادرس شنوده المنقبادي ﴾

جدول بطاركة الكنيسة القبطية

	اسماء البطاركة	سني جلوسهم		
١	مار مرقس	سنة ٤٥	ب٠م	
٢	انيانوس	» ٦٢	»	
٣	ايليوس	» ٨٢	»	
٤	سزدو	» ٩٥	»	
٥	بيريموس	» ١٠٦	»	
٦	يسطس	» ١١٨	»	
٧	يومينوس	» ١٢٩	»	
٨	مرشيون	» ١٤١	»	
٩	سيلاديون	» ١٥٢	»	
١٠	اغريبينوس	» ١٦٦	»	
١١	يوليانوس	» ١٧٨	»	
١٢	دمتريوس الاول	» ١٨٨	»	
١٣	هراكلاس	» ٢٣٢	»	
١٤	ديونيوس	» ٢٤٦	»	
١٥	مكسيموس	» ٢٦٤	»	
١٦	ثيوناس	» ٢٨٢	»	
١٧	بطرس الاول	» ٣٠٠	»	
١٨	اخيلاس	» ٣١١	»	
١٩	اسكندر الاول	» ٣١٣	»	
٢٠	اثناسيوس الاول	» ٣٢٦	»	
٢١	بطرس الثاني	» ٣٧٣	»	
٢٢	تيموثاوس الاول	» ٣٨٠	»	
٢٣	توفيلس	» ٣٨٤	»	
٢٤	كيرلس الاول	» ٤١٢	»	
٢٥	ديسقورس الاول	» ٤٤٤	»	
٢٦	تيموثاوس الثاني	» ٤٥٧	»	
٢٧	بطرس الثالث	» ٤٧٧	»	
٢٨	اثناسيوس الثاني	» ٤٩٠	»	
٢٩	يوحنا الاول	» ٤٩٧	»	
٣٠	يوحنا الثاني	» ٥٠٧	»	
٣١	ديسقورس الثاني	» ٥١٧	»	
٣٢	تيموثاوس الثالث	» ٥٣٠	»	
٣٣	تيودوسيوس ١	» ٥٣٦	»	
٣٤	بطرس الرابع	» ٥٦٨	»	
٣٥	دميان	سنة ٥٧٠	ب٠م	
٣٦	انسطاسيوس	» ٦٠٣	»	
٣٧	اندرونيكس	» ٦١٤	»	
٣٨	بنيامين الاول	» ٦٢٠	»	
٣٩	اغاثو	» ٦٥٩	»	
٤٠	يوحنا الثالث	» ٦٧٧	»	
٤١	اسحق	» ٦٨٦	»	
٤٢	سمعان الاول	» ٦٨٩	»	
٤٣	اسكندر الثاني	» ٧٠٣	»	
٤٤	قصماص الاول	» ٧٢٦	»	
٤٥	ثاوضروس	» ٧٢٧	»	
٤٦	مخائيل الاول	» ٧٤٣	»	
٤٧	مينا الاول	» ٧٦٧	»	
٤٨	يوحنا الرابع	» ٧٧٦	»	
٤٩	مرقس الثاني	» ٧٩٩	»	
٥٠	يعقوب	» ٨١٩	»	
٥١	سمعان الثاني	» ٨٣٦	»	
٥٢	يوسف	» ٨٣٧	»	
٥٣	مخائيل الثاني	» ٨٤٩	»	
٥٤	قصماص الثاني	» ٨٥١	»	
٥٥	شنوده الاول	» ٨٥٩	»	
٥٦	مخائيل الثالث	» ٨٦٩	»	
٥٧	غبريال الاول	» ٩١٠	»	
٥٨	قصماص الثالث	» ٩٢١	»	
٥٩	مكاريوس الاول	» ٩٣٣	»	
٦٠	طوماثيوس	» ٩٥٣	»	
٦١	مينا الثاني	» ٩٥٦	»	
٦٢	افرايم	» ٩٧٥	»	
٦٣	فيلوثاوس	» ٩٧٩	»	
٦٤	زخارياس	» ١٠٠٤	»	
٦٥	شنوده الثاني	» ١٠٣٢	»	
٦٦	خريستودلوس	» ١٠٤٧	»	
٦٧	كيرلس الثاني	» ١٠٧٨	»	
٦٨	مخائيل الرابع	» ١٠٩٢	»	

	اسماء البطاركة	سني جلوسهم
٦٩	مكاريوس الثاني	سنة ١١٠٢ ب٠م
٧٠	غبريال الثاني	٠ ١١٣١ ٠
٧١	مخائيل الخامس	٠ ١١٤٥ ٠
٧٢	يوحنا الخامس	٠ ١١٤٦ ٠
٧٣	مرقس الثالث	٠ ١١٦٦ ٠
٧٤	يوحنا السادس	٠ ١١٨٩ ٠
٧٥	كيرلس الثالث	٠ ١٢٣٥ ٠
٧٦	اثناسيوس الثالث	٠ ١٢٥٠ ٠
٧٧	غبريال الثالث	٠ ١٢٦٩ ٠
٧٨	يوحنا السابع	٠ ١٢٧١ ٠
٧٩	تودسيوس الثاني	٠ ١٢٩٤ ٠
٨٠	يوحنا الثامن	٠ ١٣١١ ٠
٨١	يوحنا التاسع	٠ ١٣٢١ ٠
٨٢	بنيامين الثاني	٠ ١٣٢٧ ٠
٨٣	بطرس الخامس	٠ ١٣٤٠ ٠
٨٤	مرقس الرابع	٠ ١٣٤٨ ٠
٨٥	يوحنا العاشر	٠ ١٣٦٣ ٠
٨٦	غبريال الرابع	٠ ١٣٧١ ٠
٨٧	متى الاول	٠ ١٣٧٥ ٠
٨٨	غبريال الخامس	٠ ١٤٠٩ ٠
٨٩	يوحنا الحادي عشر	٠ ١٤٢٧ ٠
٩٠	متى الثاني	٠ ١٤٥٣ ٠
٩١	غبريال السادس	٠ ١٤٦٧ ٠

	اسماء البطاركة	سني جلوسهم
٩٢	مخائيل السادس	سنة ١٤٧٥ ب٠م
٩٣	يوحنا الثاني عشر	٠ ١٤٨١ ٠
٩٤	يوحنا الثالث عشر	٠ ١٥٢١ ٠
٩٥	غبريال السابع	٠ ١٥٢٦ ٠
٩٦	يوحنا الرابع عشر	٠ ١٥٧٠ ٠
٩٧	غبريال الثامن	٠ ١٥٨٥ ٠
٩٨	مرقس الخامس	٠ ١٦٠٢ ٠
٩٩	يوحنا الخامس عشر	٠ ١٦١٩ ٠
١٠٠	متى الثالث	٠ ١٦٢٩ ٠
١٠١	مرقس السادس	٠ ١٦٤٦ ٠
١٠٢	متى الرابع	٠ ١٦٦٠ ٠
١٠٣	يوحنا السادس عشر	٠ ١٦٧٦ ٠
١٠٤	بطرس السادس	٠ ١٧١٨ ٠
١٠٥	يوحنا السابع عشر	٠ ١٧٢٧ ٠
١٠٦	مرقس السابع	٠ ١٧٤٥ ٠
١٠٧	يوحنا الثامن عشر	٠ ١٧٧٠ ٠
١٠٨	مرقس الثامن	٠ ١٧٩٧ ٠
١٠٩	بطرس السابع	٠ ١٨٠٩ ٠
١١٠	كيرلس الرابع	٠ ١٨٥٤ ٠
١١١	ديمتريوس الثاني	٠ ١٨٦٢ ٠
١١٢	كيرلس الخامس (وهو البطريرك الحالي)	٠ ١٨٧٥ ٠

الجزء الاول

الفصل الاول

﴿ مجيء قيصر الى مصر ﴾

قد يتوهم المرء ان تاريخ قرن واحد مما لا يعتد به كثيراً في حياة امة يقدر عمرها بالقرون لا بالسنين ويقتضي لتشييد معبدها الاعظم اكثر من الفي سنة ولتداعي دعائمه الى السقوط نحو مثل هذا الامد ايضاً من الزمان ولكن الحقيقة ان في ظرف مائة سنه فقط زار مصر ثلاثة زائرين تغيرت فيها كافة احوالها ومظاهر حياتها المالية تغيراً كلياً مدة اجيال مديدة . وبيان ذلك انه فيما بين السنة الثلاثين قبل الميلاد والسنة الستين بعده شهدت مصر مجيء اوغسطس قيصر أولا ثم مجيء السيد المسيح ثم مجيء مار مرقس الانجيلي

أما القيصر الذي في عهده ضمت مصر القديمة الى المملكة الرومانية فهو أوغسطس قيصر الذي جاء عنه في العهد الجديد بانه «امر بان تكتتب جميع المسكونة» وكان وقوع مصر في قبضة يده في السنة الثلاثين قبل

التاريخ المسيحي فجعلها ولاية رومانية ولو لم يكن الرومان منذ بداية امرهم الى نهايته الا طائفة أجنبية يحتقرها المصري ويبغضها ولكنه يخافها ويخشى بأسها على عكس ما كان بينه وبين اليونان الذين سبقوا الرومان اليها . على ان مصر لم تعتبر قط اقليماً رومانياً بحصر اللفظ بل كانت اشبه شيء بمرتزق خصوصي للامبراطور القابض على زمام السلطنة الرومانية بحيث كان لا يجوز لاحد ما من اعضاء مجلس شيوخ الدولة ان يطأ أرضها أو يقيم بها

ولاجل الاحاطة باطراف موضوع تاريخنا سنبسط في هذا الفصل بالايجاز حالة مصر التي كانت عليها قبل الفتح الروماني أي قبيل دخول النصرانية اليها بزمن قليل فنقول :

كان سكان مصر لذلك العهد يؤلفون على الاجمال من ثلاث طوائف: اليونان واليهود والمصريين ومن هؤلاء يؤلف العدد الاكبر والسواد الاعظم أما الآن فلا يبلغ عدد الاقباط في نفس بلادهم (ونعني بالاقباط المصريين الذين لا تشوب جنسيتهم شائبة الاختلاط) نصف ما بلغ عدد اليهود المستوطنين بديار مصر وقت الفتح الروماني . والسبب في زيادة هذين العنصرين الاجنبيين هو استمرار مهاجرة اليونان واليهود الى هذا القطر مدة حكم البطالسة عليه الى درجة اصبح فيها كل فريق منهما حينئذ عبارة عن امة اجنبية مستقرة في البلاد ممتازة بلغتها وشريعتها عن سواها

أما اليونان فكانوا مع طول عهدهم بمصر وتناسلهم ونموهم بين مائها وسمائها اجيالاً عديدة لا يزالون يضعون انفسهم في منزلة النزلاء والفاتحين ولا يرضخون لسيادة الرومان وقياصرتهم الا ظاهرياً غير ان البأس والحمية الحربية التي كانت شعاراً لاجدادهم اصبحت لهذا العهد فيها أثراً بعد عين ولم يبق لهم ما يشغلهم من الشؤون الا المتاجر والاشغال الادبية وكانوا يقيمون في مدنهم الخاصة بهم وهي في الغالب عبارة عن مراكز تجارية محصنة يعيشون فيها احراراً هازئين بحكامهم من الرومان كأنهم لم يرضخوا لنيرهم الا لان ذلك أقرب الطرق للوصول الى ما يبتغونه من الثروة واليسار وبهذه الحالة كان القليل من الجنود الرومانية يكفي لابقاء المملكة المصرية برمتها في حالة الطاعة والخضوع

وكانت الاسكندرية أم المدائن اليونانية في مصر أو هي باريس العالم القديم باسره . وكانت بطليموسة وهي مدينتهم الاخرى في هذا القطر اكبر مدن الصعيد وقت افتتاح الرومان لمصر ولا تكاد تقل في الاهمية عن مدينة ممفيس المصرية . اما هليوبوليس مدينة العلم القديمة ومدرسة مصر الجامعة ومقصد الطلاب من قدماء فلاسفة اليونان فكانت قد اصبحت في ذلك الحين قاعاً صفصفاً لا ترى فيها سوى بعض أطلال بالية يقال انها بقايا الدور التي سكنها افلاطون وغيره من فلاسفة اليونان

وكان على الضد من ذلك مدينة بابليون مفتاح الجنوب التي وضع الفرس اساسها واخذت في الاتساع والنمو حتى بلغت من الاهمية مبلغاً عظيماً

الى أن جاء الرومان فزادوا في عظمتها بتشييد الحصون والمعاقل وانشاء المباني الواسعة بها

ومن اقدم مواطن اليونان في الديار المصرية مدينة نوكراتيس وكان فيها مدرسة جامعة شهيرة بقيت ابوابها مفتوحة الى اواخر القرن الثاني بعد الميلاد

اما مدينتا طيبة وابيدوس فكانتا كلتاهما قد انحطتا الى درجة قرية بسيطة .

واما قورينة وهي مستعمرة يونانية تابعة لمصر منذ اكثر من مائتي سنة ومعتبرة جزءاً منها فكانت لا تزال زاهية بمدرستها الجامعة عامرة بتجارتها الواسعة وقد استمرت كذلك الى نهاية القرن الرابع بعد المسيح

الحالة الدينية — كانت الطوائف الثلاث متمسكة كل بدينها الاصلي غير ان اليهود والمصريين كانوا اشد تمسكاً وتعصباً من اليونان الذين شاع بينهم وقتئذ نكران الالوهية ونبذ معتقداتهم الدينية وعدم الاكتراث سواء بامر معبوداتهم او امبراطرتهم . وكان الملك بطليموس سوتير قد حاول ايجاد معبود يشترك رعاياه من مصريين ويونانيين في عبادته فابتنى في اسكندرية هيكل سيرابيس العظيم واقام فيه تمثالاً هائلاً من صنع مدينة سينوب باقليم بافليجونيا اتخذه اليونان والمصريون كناية عن الآله هادس واطلق عليه اولئك اسم (يلونون) وهولاء اسم (اسارابي) اي اوزيرس المخفي ثم لم يمض عليه قرن بعد ذلك حتى غلبت كلمة سيرابيس التي هي تحريف (اسارابي)

فصارت علماً عليه . وهذه العبادة كانت الجامعة الوحيدة بين اليونان والمصريين غير انها مع كل ذلك لم تتعد اسوار اسكندريه حتى زمن دخول النصرانية الى بلاد مصر

اما ديانة المصريين القديمة فكانت قد اندرست منذ عهد طويل وحل محلها مجرد عبادة الحيوانات . وكأنما تلك المعاني الروحية والاصول الادبية التي كان لها اشد تأثير على عقول الملوك وفلاسفة الازمنة الغابرة قد فارقها ولم يبق منها أثر الا ما كان مستتراً طي حكاية لا تعقل او خرافة لا تصدق واصبحت البهائم والطيور التي لم تكن في الاصل على ما يظهر سوى علائم على الاقاليم المختلفة او شعاراً متخذاً للدلالة على كل منها موضوع عبادتهم الآن كالهة في السر والعلن وكانت سبباً لمنازعات ومنافسات شديدة كثيراً ما أدت لاصلاء نار حرب داخلية بين اقليم وآخر وكان هذا من اقوى عوامل تشتيت شمل الامة وعجزها عن الاتحاد والوقوف في وجه اي عدو كان ولو اجنبياً عنها . وكان المعبود الاعظم في مدينة ممفيس الثور أبيس وفي أومبوس التمساح وفي اوكسيرينكون نوع مخصوص من سمك النيل وفي مدينة سيوط الذئب وفي سينوبوليس الكلب وهلم جرا مما يطول شرحه . نعم ان كثيرين من الكهنة والخواص كانوا لا يزالون يعتقدون بآله واحد في ثلاثة اقانيم وانه الفاعل لكل خير وان بقية الآلهة ليست الا عبارة (رمز) عن مظاهره وتجلياته المتعددة غير ان هؤلاء

كانوا يترفعون على العامة والسوقة ويعتبرونهم احقر من ان يتداخلوا في منافساتهم بشأن الطيور والحيوانات التي حلت محل الدين عندهم . وكان لهم مثل يضربونه في هذه الاحوال يظهر منه انه كان لا يزال في المصريين لذلك العهد من لا يعتد بظواهر التدين ولا يعتبر التمسك بشعائر وتقاليد الدين الخارجية شيئاً بالنسبة للايمان الصحيح مع عيشة التقوى وهذا هو المثل « ليس بالكتان الابيض وقص الشعر تكون تقوى ايزس »

وكان المصريون يمارسون كثيراً اشكالاً مخصوصاً من الرياضة الروحية يظهر انه يلازم في الغالب حالة الامة اذا صارت الى درجة سافلة في معتقدها فمن ذلك مزاولتهم استحضار ارواح الموتى في نظير جعل يأخذونه من الطالب واستجواب تلك الارواح على ما يلقى عليها من الاسئلة وكذلك استعمال التكلم من الباطن واستخدام ذلك في مثل ما ذكر من الاغراض ولا يخفى ان هذا الفن بقي معروفاً في مصر على الدوام

اما فيما يتعلق بالصناعات فلنذكر اولاً ان المصريين في ذلك الوقت كانوا قد عادوا لضرب العملة في بلادهم واستمروا على ذلك عدة قرون حتى قبيل تولي كلوديوس قيصر وتعتبر المجموعة الكاملة من هذه النقود من اثمن الآثار لدى المؤرخين . ثم انهم كانوا يستخدمون العبيد والمجرمين والاشقياء في استخراج الكميات الوافرة من محاجر البرفير ومعادن الزمرد التي اندثر اثرها بعد ذلك حتى لم يخطر على البال وجودها اصالة الى أن اكتشفت ثانية في ايامنا هذه . وكانت في مصر ايضاً معامل

ومصانع طائرة الصيت في جميع انحاء العالم المتمدن وقتئذ . فمنها ما كان خاصاً بتركيب الادوية والعقاقير وانواع الاصبغة . ومنها معامل الورق والحرير والزجاج هذا فضلاً عن شهرتها في المحاصل الزراعية . وكفى دليلاً عليها ان مصر كانت تقدم الى سادتها الرومان منذ توليهم عليها مقادير جسيمة جداً من الحنطة في كل عام . وكان المصريون لذلك الحين يصطنعون من الورق ثمانية انواع مختلفة ثم اخترعوا نوعاً تاسعاً منه في عهد كلوديوس قيصر فسموه باسمه اكراماً وتعظيماً له . وكانت تصنع الكميات الوافرة ايضاً من منسوجات الكتان والقطن وكذلك من نبيذ العنب ولكنه كان لا يضاهي انبذة اليونان وايطاليا في جودته . وكانت تستخرج ايضاً بمصر الجعة (البيرا) ويشرب المصريون منها مقادير وافرة ولا تزال تصنع الى يومنا هذا غير ان زراعة الكروم قد بطلت برمتها تقريباً لهذا العهد لاسباب سنأتي على ذكرها بعد

اما عن سودان مصر الذي كان في عهد الفراعنة وبعض ملوك البطالسة محتوياً على اقاليم تعتبر من اهم اجزاء المملكة المصرية فلم يكن لمصر منه قيد شبر باقياً حينما افتتحها الرومان بل لم يكن وقتئذ يرد الى اصوان مما يليها جنوباً اي شيء كان من بضائع ذلك السودان ومحاصيله عن طريق النيل واصبحت حاصلات افريقيا الجنوبية تأتي بها السفن الى ميناء بيرنيس بحراً فقط . ثم بعد ان تم فتح الرومان لمصر لم يتيسر لهم مطلقاً توسيع نطاق فتوحاتهم الى ما يجاوز وادي حلفا بل كثيراً

ما التزموا ان يعتبروا حدهم الجنوبي الى الشمال من حلفا . وزد على ذلك انه في عهد اوغسطس قيصر ارسلت كنداكة ملكة الحبشة جيشاً مؤلفاً من ثلاثين الف مقاتل الى مصر لشن الغارة عليها فظفر هولاء الاحباش بالجنود الرومانية في جزيرة الفنتين (أنس الوجود) واصوان وجزيرة اصوان (فيلا) ولكنهم تقهقروا بعد ذلك من امام القائد الروماني جاوس فاقتفى أثرهم الى ان دخل مدينة بناطة عاصمة مملكتهم ظافراً منصوراً ومن ثم قفل راجعاً الى مصر

ولنرجع الى الكلام عن شعوب مصر فنقول : لا شك ان عدد اليهود كان يبلغ مليوناً من النفوس تقريباً وقت افتتاح الرومان لمصر فان مهاجرتهم اليها استمرت عدة قرون منذ قام يوحنا بن قاريح واخذ بقية يهوذا مع ارميا النبي وباروخ بن نيريا وأتى بهم رغماً عن معارضة ارميا الى ارض مصر الى تحفنحيس ومجدل ونوف وارض بثروس فحلت عليهم بمصر مصائب كثيرة كما تنباء عن ذلك ارميا . غير ان ذلك لم يكن ليوقف تيار المهاجرة بدليل انه بعد ثلاثمائة سنة من ذلك التاريخ اي عقيب اغارة الفرس على مصر وانتقالها لليونان من يعدهم كان عدد اليهود فقط الذين عتقهم من الرق بطليموس فيلادلفوس يبلغ في مصر مائة وعشرين الفاً وهؤلاء طبعاً هم الذين كانوا أخذوا اليها رغم انفسهم في اثناء حروب ابيه مع ملك سوريا ولكن لا شك انه كان يوجد بمصر الوف غيرهم من اليهود الاحرار الذين قصدوها طوعاً واختياراً منجذبين اليها بما

اشتهر عنها من وفرة خيراتها وحسن نظام حكومتها بحيث لا يصح لنا مطلقاً الحكم بان المائة وعشرين الفاً المذكورة آنفاً كانت عبارة عن جميع اليهود القاطنين بمصر في زمن بطليموس فيلادلفوس . وفضلاً عما تقدم فانه في عهد بطليموس فيلومتر التجاء اونياس بن حنانيا رئيس الكهنة الى مصر وأذن له الملك بتشييد الهيكل الذي اشتهر بعد ذلك باسم هيكل أونياس بمدينة ليونتوبوليس بقسم عين شمس باقليم بوباستس فزادت بذلك اسباب الرغبة من اليهود في المجيء الى مصر والتوطن فيها حتى انه في زمن الفتح الروماني كان موطن السواد الاعظم من يهود مصر بقسم عين شمس (هليوبوليس) أو بمدينة الاسكندرية حيث اختصوا منها بقسمين كاملين من اقسامها الخمسة

وكان افراد كل من طائفتي اليونان واليهود الاجنبيتين متمتعين بجميع الحقوق المدنية والسياسية اما المصريون ابناء البلاد فكانت محرمة عليهم هذه المزايا فلا يتقاضى اليهودي مثلاً او اليوناني الا امام قضاة من ابناء جلدته اما المصري فيحاكمه الاجنبي . وقد سعى يونان اسكندرية في سلب الحقوق المذكورة من اليهود ايضاً مدة وجود اوغسطس قيصر بالديار المصرية فردهم خائبين غير انه لم يجد حيلة في ما رآه من احتقار اليونان والمصريين كليهما لتلك الطائفة وازدرائهما بها ولم يسعه الا الصمت على ما تعوده اليونان من اهتضام حقوق ابنائها ومنازعتهم في مالهم

وفي عهد الامبراطور كاليغولا كانت اسكندرية عبارة عن ميدان

حرب متسع الارجاء بين اليونان واليهود اذا ضمر اليونان التشفي والانتقام من هؤلاء بان أخذوا على انفسهم اكراه اليهود على العمل بموجب امر اصدره هذا الامبراطور يقضي باقامة تمثاله في جميع المعابد الموجودة بالمملكة واداء العبادة له . ولم ير اليونان طريقة لالزام اعدائهم بالرضوخ لهذا الامر الا بمحاربتهم ومناصبتهم الشر والعداء على الدوام وكان فلاكوس الوالى الروماني اذ ذاك معضداً لليونان فترتب على ذلك اضطهاد اليهود اضطهاداً شنيعاً جداً واتفق حينئذ ان اغريبا ملك اليهود قدم الى الاسكندرية وشاهد تلك الحالة المريعة فابلغ الامر الى كاليغولا وتلطف معه حتى نال منه امراً بعزل الوالي وأذن في حضور وفد من اليونان وآخر من اليهود ليعرضوا الامر عليه في رومية وكان زعيم الوفد اليهودي فيلو الشهير بعلمه وآدابه ونادرة عصره في الفضل والكمال وكان رئيس الوفد الثاني أبيون احد ابناء الاشراف من اليونان وهو اسكندري الاصل والمحتد وكان من فطنة اليونان انهم تصروا شكواهم على امر واحد وهو ان اليهود امتنعوا عن اداء العبادة لتمثال الامبراطور . فلما مثلوا امامه وسألهم كاليغولا في ذلك لم يسع اليهود ان ينكروا فتضب وأبى ان يسمع منهم قولاً بعد ذلك فعادوا يتعثرون باذيالهم غير انه لحسن الحظ لم تطل حياة الامبراطور كاليغولا اذ مات عقيب ذلك بزمن قليل وتولى الملك بعده كلوديوس قيصر وفي عهده التزمت الطائفتان المهادنة والسلم

اما اسباب هذا العداء بينهما فلا ريب انه من اهمها فوز اليهود

مع حقارتهم على اليونان في معظم الامور التى كان هؤلاء يفتخرون بنسبتها اليهم واختصاصهم بها . فقد كان اشهر علماء الاسكندرية وكتابها لذلك العهد من اليهود وكانت مدارس الاسكندرية ولو انحطت منزلتها عما كانت عليه في عهد البطالسة لا تزال مشهورة في جميع انحاء المسكونة غير ان اسماء كبار فلاسفتها ومعلميها اصبحت عبرانية لا يونانية وناهيك بفيلو اليهودي فخر العلم والعلماء بتلك المدينة في القرن الاول للميلاد وكانت عائلة فيلو هذا في الطبقة العليا بالاسكندرية من حيث مركزها الادبي والمالي . اما الرجل فكانت ولادته بمصر عقب الفتح الروماني بمدة وجيزة والظاهر ان هذا البيت كان مقرباً بالمعاملات المالية من أولئك الامبراطرة الظافرين منذ نشأته . فان الاسكندر اخا فيلو ورأس تلك العائلة كان رئيساً لاحدى المصالح بالاسكندرية وموكلاً على اشغال انطونيا اخت امرأة طيباريوس قيصر وكان يقرض اموالاً طائلة للملك اغريبا اليهودي وقيل انه صاهره بان زوج ابنيه بابنتي الملك . وكان للاسكندر ابن ثالث يدعى طيباريوس ترك الديانه الموسوية ونصب بعد ذلك والياً على مصر

وكان فيلو في اثناء هذه المشاغل الهامة العائدة على بيتهم بالارباح الطائلة والجاه العريض منكباً على مزاولة العلوم الفلسفية والدينية والادبية مشتغلا بها عن كل ما سواها فاذا مست الحاجة يوماً الى تداخله في شؤون المدينة او دعته الاحوال الى التقدم للدفاع عن ابناء جلدته

نهض نهضة الشهم الهمام وقام بالواجب عليه خير قيام مودعاً بطون الاوراق عبارات اسفه على مفارقة المحابر والاقلام واستبدال لذة العزلة بخوض بحر السياسة العجاج . والظاهر انه كان في زمن شيخوخته قد اعتاد الخلوة في أوقات معلومة مع جماعة المتوحدين الذين ابقى لنا عنهم ذلك التعبير البديع في مؤلفه المسمى (الحياة الفكرية)

اما مدينة الاسكندرية فبدأت بالانحطاط منذ سرى الفساد في ملك البطالسة . ولو جرى قياصرة الرومان بعد ذلك على خطة الثلاثة ملوك الاول من الدولة البطليموسية لكانت قد عادت بذلك الاسكندرية الى مجدها الاول ولكن تغيير الدولة جاءها ضغثاً على اباله وذلك ان اوغسطس قيصر تعمد خرابها بانشائه عاصمة جديدة دعاها نيكوبوليس كان موقعها الى شرقي الاسكندرية على مسافة ثلاثة اميال ونقل اليها كهنة المدينة الاصلية بالقهر والاكراه ولكن ارادة اليونان وطبيعة الاحوال كانتا اقوى من ارادته اذ لم تكد تتم تلك العاصمة الجديدة حتى خيم عليها عنكبوت الخراب وتداعت اركانها للسقوط وهكذا بقيت الاسكندريه بعد الفتح الروماني واستمرت زمناً بعد المسيح ايضاً وهي المدينة الاولى في العالم باسره بدون استثناء رومية او اثينا وما على الذي يبغي التحقق من ذلك سوى ان يلتفت الى خريطة الاسكندرية القديمة كما هي مرسومة باحد الكتب الافرنكية الحديثة المسماة « دليل مصر » ثم يقارن بينها وبين المسافة التي تشغلها الان المدينة الحالية المتخذة لنفسها ذلك الاسم

الشهير . وكانت القصور الباذخة والهياكل الفخيمة تشغل ربع مساحة الاسكندرية في السنة الاولى من التاريخ المسيحي وكانت ميناها الشهيران تشتملان على ما لم تسمه اية مينا اخرى في العالم من السفن وتجارتها الخارجية تفوق على صادرات ايطاليا كلها . وكانت دار التحف والآثار قد شيدت بعد ان احرقها جيش يوليوس قيصر ثم بني بها متحف آخر في عهد كلوديوس قيصر وسمي باسمه . وانشيء بها ايضاً قصر بهي لاقامة القياصرة الرومانيين وسمى (سيزاريوم) اي مسكن القياصرة . وكانت مكتبة هيكل سيرابيس الحصين تحوي زهاء ٧٠٠ الف مجلد كلها مشحونة بغرر حكمة المصريين وعلومهم . وكما كان لليونان المتحف وللمصريين الهيكل كذلك كان يتفاخر اليهود بكنيسهم الاعظم الذي يعتبر من اجمل المباني وافخمها

هذه بوجه الايجاز كانت حالة البلاد والناس الذين اتى ليملك عليهم القيصر الروماني . فهلا عرف ياترى انه قبل موته يدخل مصر ملك آخر يخضع لسلطته اليوناني والروماني واليهودي والمصري على السواء وان اسمه يزيع ويشيع في كل زمان ومكان حيثما تصل السطوة الرومانية ولم يتردد صدى نفوذها

الفصل الثاني

﴿ مجيء المسيح الى مصر ﴾

ان الذي يزور مدينة لندن ويتفقد عادياتها يجد بين آثارها صورة تسمى «سنة الرب» وهذه الصورة تمثل الاحتفال العظيم الذي كان يقيمه المصريون لآلهتهم في السنة الاولى من التاريخ المسيحي مما كان شائعاً في مصر شيوعاً واسعاً . وكان ترتيب هذا الاحتفال كما يلي : يسير اولاً المغنون ثم يتبعهم الضاربون على الاعواد وبين هذين فتيات حسنات يضربن بالطبول والدفوف وتتقدم هذا الموكب السامي الالالهة ايزيس محمولة على أكف الشرف والفخار ومعها ابنها هورس جالساً على ركبتيها وحين مرور الآلهة في هذا الموكب يأتي الناس بمرضاهم على جانب الطريق كي ينالوا الشفاء والعافية . وكانت تباع صور الالهة ليستعملها الناس كتعاويذ وطلاسم واقية من كل سوء وضر . وفي وسط الصورة الممثلة هذا الاحتفال يري الناظر ركباً حقيراً قد انزوى جانباً ليفتح الطريق لموكب الآلهة الحافل وهذا الركب مؤلف من امرأة وطفلها راكبين حماراً انهكه التعب وخلفهما زوج هذه الامرأة وهو رجل ريفي يسير راجلاً وقد اضناه الكلال وطول الشقة

اما هاتيك الآلهة وتلك الابهة والعظمة والجلالة الملازمة لها فقد اندرست وبادت الان مع كل آثارها واصبح الكل نسياً منسياً وأمست هياكلها اطلالاً بالية واما اسم ذلك الطفل فلم يزل ولن يزل مكرماً مشرفاً في جميع انحاء المعمورة وهو يسوع المسيح مخلص العالم

وانا لا نرى في تمثيل الحادثة السالف ذكرها ما يوجب الريب في صحتها البتة . فان يوسف لا يأتي طبعاً بولده وامرأته من بيت لحم الى مصر الا عن طريق الصحراء مجتازاً القنطرة ومنها الى عين شمس ثم بابيلون التي يرجح انه قطنها مدة اقامته بالديار المصرية . وقد كان هيكل اليهود الاعظم الذي شاده اونياس بالقرب من عين شمس الى الشمال الشرقي من بابيلون لا يزال قائماً لذلك العهد غير انه لا يوجد ما يدل على ان يوسف وعائلته اقاموا به ولعل السبب ان يوسف كان له اقارب او اصحاب ببابيلون فسكن حيث كانوا . ومما يؤيد هذا القول اغفال ذكر هيكل اونياس في جميع الروايات المصرية القديمة المشحونة باخبار الآيات والعجائب التي حصلت في كل مكان وطأه قدم السيد له المجد في ارض مصر مثل خبر سقوط الاصنام في عين شمس حالما أوتي بالصبي يسوع الى هيكلها على ما ورد في معظم النسخ القديمة من كتب الاناجيل المعروفة بالابوكريفا (اي التي لا تعتمدها الكنيسة المسيحية) كذكر النبع الذي لا يزال يشاهد الى هذا العهد بقرية المطرية الى جنوب اطلال عين شمس القديمة وقد جاء عنه في اقدم الاحاديث

ان العذراء غسلت فيه ثياب الصبي ابنها حينما جلست لتستريح بجانب الطريق وقد اضناها التعب في آخر ايام السفر ثم انها بعد ذلك واصلت المسير حتى وصلت بابيلون فالقت بها عصا الترحال واستراحت من مشاق السفر

اما مدينة بابيلون هذه فانما هي بابل المصرية ولكن شهرة سميتها بابل الاسيوية وما كان لها من الصيت الطائر والسمعة الفائقة قد قضى عليها بما لا تستحقه من خمول الذكر وانطفاء الخبر حتى ان كثيرين من علماء التاريخ الاوروبيين لا يدرون عنها شيئاً على الاطلاق . وقد الف احد ائمة الانكليز (دين فرار) في هذه الاثناء مؤلفاً حديثاً لم يرد فيه عنها اكثر من هذه العبارة « بابيلون مدينة حقيرة في شمال افريقيا » كأن لم تكن دعواها بزيارة بطرس الرسول اياها داعياً لزيادة الالتفات اليها والاعتناء بامرها اكثر مما ابداه هذا الكاتب . على ان من يمعن النظر في مؤلفات الاوائل قبل ان تسدل السلطة الاسلامية حجاب ظلمتها بين مصر واعين اوروبا تبين له من اهمية تلك المدينة ما ينافي عدم اكتراث المؤلفين الحديثين بامرها الى هذا الحد (١)

هذا وقد اختلف المؤرخون في امر منشاء بابيلون . فقال ديودورس المؤرخ ان الاسرى البابليين الذين اخذهم من آسيا رعمسيس الثاني

(١) انه في نفس مدة حكم الاسلام كان مؤرخو الاوروبيين كلما تمكنوا من معرفة شيء عن مصر سواء كان باسباب الحروب الصليبية او غيرها وذكروه بمؤلفاتهم لا يذكرون ملكها الا باسم « سلطان بابيلون » دون ممفيس او القاهرة

(سيزوستريس) ملك مصر واستعبدهم فيما بعد شقوا عصا الطاعة اخيراً واحتلوا قلعة هابنين (١) على شاطيء النهر تجاه مدينة ممفيس الى الشمال منها — وشنوا غارة شعواء على البلاد المجاورة لهم فدوخوها ولم ينفكوا عن القتال حتى عفى رعمسيس عنهم وامنهم فخضعوا له واخلدوا الى السكينة باباحته لهم امتلاك الجهة التي احتلوها لتكون مستعمرة خاصة بهم فشيدوا هنالك مدينة دعوها بابيلون (او بابل) على اسم عاصمة بلادهم الاصلية (٢)

وكتب يوحنا اليهودي من نكيوس في القرن السابع بعد المسيح في عرض كلامه عن القلعة التي انشأها الامبراطور تراجان في بابيلون ما يأتي :

« وكان نبوخذ نصر قد بنى بهذا المكان قلعة قديمة دعاها قلعة بابيلون وذلك حين استيلائه على مصر بعد ان نفى اليهود اليها عقب هدمه اورشليم وكانوا قد رجموا بني الرب في طيبة بارض مصر وبذلك ارتكبوا اثماً على اثم . وقد قدم نبوخذ نصر الى مصر بجيش جرار وحاربها لان اليهود الساكنين فيها عصوا عليه وسمى القلعة بابيلون على اسم عاصمة بلاده اشور » (انظر ارميا ٤٦ : ١٣ — ٢٧)

ولا شك ان هذه القلعة القديمة هي التي ذكرها سترابون الجغرافي

(١) قد سمى الاستاذ سايس الشهير هذه القلعة (اكريا هو) وليذكر القارىء ان اكثر المدن المصرية القديمة لها اسمان

(٢) ان العلامة سمث في قاموسه عن جغرافية اليونان والرومان يقول ان بابيلون المصرية هي الى شمالي الفسطاط وهذا خطاء كما لا يخفى على اللبيب

الروماني في اثناء وصفه لرحلته الى مصر عقب افتتاح الرومان اياها بوقت قصير . والى شمالي هذه القلعة على بعد بضع مئات من الاذرع بنيت قلعة الامبراطور تراجان التي لا تزل اسوارها المنهدمة ظاهرة الى هذا اليوم وكان بناؤها بين سنة ١٠٠ و ١١٧ ب .م

ومما يتشوق القاري لمعرفته ما يتناقله القوم من الروايات عن اقدمية سكنى اليهود في بابيلون هذه . فان بين آثارها الان كنيساً لهم يتصل تاريخه بعهد مجيء المسيح بصرف النظر عن توالي ترميمه وتجديده المرات العديدة بل قد زعم بعضهم ان اصل بنائه كان في ايام ارميا النبي . وهاك ما ذكره عنه المقريزي في خططه قال : « ان موقع كنيس السوريين (او اليهود) بقصر الشمع (بمصر العتيقة (١)) وهو قديم جداً وقد نقش على عارضة بابه كتابة قديمة بالعبرانية جاء فيها ان انشاه كان في سنة ٣٣٦ للاسكندر اي قبل خراب هيكل اوشليم للمرة الثانية على يدتيطس بخمس واربعين سنة او بنحو ٦٠٠ سنة قبل الهجرة (٢) . وتوجد في ذلك الكنيس نسخة من التوراة اجمع كل اليهود بان عزرا النبي كتبها برمتها » اه

(١) ان مصر القديمة او العتيقة هو الاسم الذي يطلق الآن على المدينة التي بنيت على اطلال بابيلون القديمة بعد ان دمرتها النيران في القرن الثاني عشر ولم يبق لهذا العهد من بقايا بابيلون سوى سور تراجان والجزء الذي سكنه المسيحيون واليهود من تلك المدينة ويحيطه ذلك السور الى الآن

(٢) لا ريب في ان المقريزي نقل التاريخ المنقوش على ذلك الباب بصحته وهو سنة ٣٣٦ للاسكندر لكنه اتهم في حسابه اذ المعلوم ان خراب اورشليم كان في سنة ٦٩ ـ ٧٠ بعد المسيح وهو يوافق سنة ٦٢٢ قبل الهجرة .

هذا وقد بقيت نسخة التوراة التي ذكرها المقريزي محفوظة في المحل الى خمس عشرة سنة مضت من عهدنا هذا وكانت مخبؤة في موضع مقدس بالكنيس المذكور وكتبت اللعنات على كل من يمد يده اليها ولكن بعض اليهود أفشى ذلك السر لغير ابناء الملة فكان من ذلك انه في غيبة الموكلين بحراسته دخل اثنان من المغرمين بالآثار القديمة الى الكنيس وكسرا المخباء الذي كان الدرج داخله ولم يعبأا باللعنات وتهديدات المرأة التي كانت تنوب عن الحراس واجتهدا ان يفتحا ذلك الدرج . غير انه مع تقادم العهد به على تلك الحالة من الانفراد كان قد توصل اليه ثعبان دخل من صدع في الخشب فعش في المخباء المحفوظ في الدرج كما دل على ذلك ما وجد من بقايا جلد الثعبان فيه . وقد التصقت اطراف الدرج بعضها ببعض التصاقاً متيناً بما كان يفرزه ذلك الثعبان من لعابه في تلك المدة بحيث ان صاحبينا الاثريين المذكورين لم يجدا طريقة لفتح هذا الدرج ما لم يمزقاه ارباً فعدلا عن ذلك وعادا مقتنعين بعظم قدميته وفي نيتهما ان يعودا مرة اخرى ويبذلا جهدهما في فتحه . فلما عادا الى الكنيس المرة الثالثة وجد ان الحراس قد تنبهوا الى ما حصل فبادروا بنقل الدرج الى مكان امين بالقاهرة وقد وضعوا في محله نسخة حديثة يعرضونها الآن على الزائرين بدعوي انها النسخة الاصلية . ثم عقب ذلك ان هدم الكنيس القديم برمته وبني في موضعه مجمع جديد بيد انه مع كل ما طرأ على ذلك المحل من التغيير والهدم والبناء

كان اليهود يحافظون اشد المحافظة على بقعة يزعمون أن فيها القبر الذي يضم عظام ارميا النبي

وعلى كل حال فقد ثبت بادلة عديدة انه كان في مصر مستعمرة من اليهود قبل ميلاد المسيح وفي وقت ميلاده وانهم كانوا يعتبرون تلك البقعة من بابيلون المصرية اعتبارا خصوصياً ويميزونها على غيرها من الاماكن . ثم ان السواد الاعظم من تلك المستعمرة قد اعتنق الديانة المسيحية في اوائل ظهورها وأبدل المجمع بكنيسة من ذلك العهد فلما حدث الانشقاق بين الكنيسة اليونانية والكنيسة المصرية في سنة ٤٥١ ب . م تبعت كنيسة اليهود للملكيين اي الروم فلما تقلص ظلهم هجرت تلك الكنيسة واهملت وتداعت الى الخراب فاخذها المصريون وهي على تلك الحالة وبقيت من ثمت بايديهم الى ان التجأ اليها ميخائيل الثالث (بطريرك الكنيسة الملكية) فى النصف الاخير من القرن التاسع بعد الميلاد بعد ان قبض عليه الحاكم الاسلامي واشترط عليه اموالاً طائلة يدفعها اليه في مهلة اربعة شهور والا امر بقتله واثارة الاضطهاد على ابناء كنيسته

ولما رأى يهود بابيلون البطريرك ميخائيل في هذه الضيقة وكانوا يرغبون كثيرا في اعادة تلك البقعة الى يدهم انتهزوا هذه الفرصة وطلبوا منه ان يبيعهم اياها فرضي بالصفقة وقبض الثمن ودفعه في الجزية المطلوبة فداءً عنه وعن كنيسته. اما اليهود فظلوا من ذلك العهد الى الآن واضعين

يدهم على ذلك المكان وسواء كان القبر الذي به هو قبر ارميا حقيقة ام لا فلا ريب انهم يكرمون تلك البقعة ويعتبرونها اعتباراً عظيما

وعلى مقربة من كنيس اليهود الآنف الذكر توجد داخل اسوار القلعة الرومانية ايضاً كنيسة تكاد تكون الوحيدة في القطر من حيث كثرة رغبة السائحين فيها واقبالهم عليها من كل فج نظراً لما اشتهر عنها من الانباء والروايات القديمة وهي في الحقيقة عبارة عن كنيستين سفلى وعليا فالكنيسة العليا مكرسة على اسم القديس انبا (١) ـ أوابو ـ سرجه ولم تشيد الافي القرن السابع للميلاد بعد ان هجرت القلعة عساكر الروم وخلت منهم كلية وربما لم يكن ذلك حتى أوائل القرن الثامن . اما الكنيسة السفلى القائمة على سطح الارض الاصلي قبل ان يرتفع ارتفاعه الحالي بعد بناء القلعة فهي على صغرها قديمة العهد جداً وقد اصبحت الآن كسرداب للكنيسة العليا. وقد جاء في الروايات القديمة عن هذه الكنيسة انها بنت في عصر الرسل لتكون علامة على البقعة التي كانت قائمة فيها الدار التي سكنها المسيح مع ابويه مدة اقامتهم في بابيلون . ويغلب على الظن ان طبقة الطلاء الحالية التي على حيطان المكان والاعمدة الصغيرة المرتكن عليها السقف غير قديمة العهد جداً ولكن الكنيسه عينها يصح

(١) « انبا » كلمة مصرية قديمة معناها « أب » وتحرفت « انبا » في اللغة القبطية الحديثة وقد حلت محلها الآن كلمة « ابو » العربية وعم استعمالها . اما كلمة « مار » التي يستعملها الاقباط لقديسيهم فهي كلدانية الاصل ومعناها « رب » — اصلها ماري اي ربي — والكنيسة التي نحن بصددها قد كرست باسم القديسين سرجيوس وباخوس وهما شهيدان عظيمان . ولم يرد ذكر باخوس مطلقا لانه اسم آله الخمر عند اليونانيين القدماء .

بلا شك اعتبارها اقدم واصغر كنيسة في الوجود . وقد لا يتسنى للانسان معرفة مساحة الكنيسة بالضبط نظراً لانهيال الردم على جانبيها الغربي والشرقي ولكن طول الكنيسة بحالتها الراهنة يبلغ نحو ٢٠ قدماً وعرضها ١٥ قدماً. ولا تزال معمودية الكنيسة بالجانب الايمن مستعملة الى هذا العهد ومما يذكر مع الاسف الشديد ان الجهلاء من الاقباط الذين في يدهم هذا الاثر الجليل يملأون عقول السائحين الذين يذهبون افواجاً لرؤيته بخرافات وحكايات عقيمة عن يوسف ومريم العذراء . وقد تعرف هذه الكنيسة بكنيسة العذراء

واعلم انه في ايام مجيء المسيح له المجد الى هذا المكان كان موقع هذه النقطة على شاطىء النيل تقريباً ولم يكن السور العظيم المتداعي للسقوط الآن قد انشىء بعد بل كان ذلك القسم برمته من بابيلون عبارة عن حارة اليهود بها ولا وجه للريب مطلقاً في صحة الرواية القائلة بسكنى يوسف ومريم في ذلك المكان مدة اقامتهما في بلاد مصر أو معظم تلك المدة . ولكن اختلف الباحثون من شرقيين وغربيين في تقدير مدة بقاء السيد في ارض مصر فذهب بعضهم الى انها ستة اشهر فقط وقال آخرون انها ما بين سنتين واربع سنين الى ست

الفصل الثالث

كرازة مرقس الانجيلي

سنة ٤٥ ب.م

قد ثبت بالاجماع ان مؤسس كنيسة مصر هو القديس مرقس الانجيلي غير ان السنة التي جاء فيها الى مصر لاول مرة لم يتفق على تعيينها اتفاقاً تاماً . والظاهر ان مار بطرس الرسول رافقه الى بابيلون وهنالك كتب رسالته الاولى للامم كما اشار الى ذلك في آخر تلك الرسالة. نعم ان الباحث لا يستطيع ان يأتي بدليل قاطع على ان بابل المذكورة في رسالة بطرس هي بابيلون المصرية فضلاً عن ان مؤرخي الغربيين كثيراً ما حاولوا ان يثبتوا أن المدينة التي اشار اليها بطرس هي بابل اشور او انه استعمل هذا الاسم مجازاً للدلالة على مدينة رومية . غير ان العدالة توجب علينا ترجيح القول الاول بدليل كون الاقرب الى الصواب هو ان بطرس الرسول كتب رسالته من مدينة مشهورة مأهولة باليهود وكانت ملجأ لسيده كبابيلون المصرية لا انه كتبها من مدينة مقفرة لا داعي يدعوه الى التوجه اليها بنوع مخصوص كبابل اشور الخارجة عن دائرة حدود المملكة الرومانية . ثم انه من الجهة الاخرى يبعد علينا التصديق

بان بطرس الرسول استعمل كلة بابيلون مجازًا للدلالة على رومية متشبهاً في ذلك بمؤلف سفر الرؤيا المشهور بغموض عباراته . على انه في الاعصر الاولى من التاريخ المسيحي قلما كانت الكنائس الغربية تعرف شيئاً عن بابيلون المصرية (١) اذ كانت بلاد مصر ممثلة في عينيها بلفظة كنيسة الاسكندرية. وعلى هذه الكيفية نسي لاهويتو الغرب كل شيء عن بابيلون المصرية او غيرها من مدن مصر عقيب انفصال الكنيسة المصرية عن الكنيسة اليونانية سنة ٤٥١ ب.م حتى ان كل ما صادفهم عن بابيلون المصرية في التواريخ المسيحية القديمة كانوا يسندونه بلا تردد الى بابل الاسيوية. ولسبب هذا الخلط بين المدينتين تأصل فيهم الاعتقاد بصدور الرسالة السالف ذكرها من بابل اشور كما سبق القول

اما مار مرقس نفسه فقد ذكر في التواريخ المصرية انه ولد باقليم الخمس مدن الغربية (پنتابوليس) (٢) الواقع على حدود القطر المصري من الجهة الشمالية الغربية وكان يعتبر جزءاً من مصر وقطعة من املاكها منذ

(١) بل ان الحديثين ايضاً من مؤلفي الغرب لا يزالون يجهلونها . فقد ورد ذكر بابيلون في كتاب « قاموس السير المسيحية » للعلامة سميث نقلا عن مؤرخ قديم ولكن الناقل سرد الحكاية وهو يقال فيما يظهر ان الكلام مختص ببابل الاشورية مع ان مراجعة العبارة الاصلية تجزم بانه يعني بابيلون المصرية وهاك النص المشار اليه « ان هيلاريون بارح بيت لحم ومعه اربعون راهبا فساروا اربعة ايام متوالية لا يذوقون طعاماً الا في المساء وفي اليوم الخامس وصلوا الى (بلوزيوم) وهي مدينة على فم الفرع الشرقي للنيل فقابلو ادراكو نتيوس ومنها توجهوا الى بابيلون لمشاهدة ديلو »

(٢) ان هذا الاقليم يحتوي على خمس مستعمرات يونانية — وهي المعروفة عند الاقباط بالخمس مدن الغربية — وهي سيرين (القيروان) وبتولماييس (اوبرقة) وارسينو (اوتيوخيا) وبيرس (هيبريدس) وابولونيا ولذا أطلق عليه اسم الخمس مدن واستمرت خاضعة لمصر بعد حكم الرومان بمدة طويلة

عهد بطليموس الاول . ويقال ان مار مرقس من عائلة كانت ذات ثروة ويسار بذلك الاقليم فسطت عليها بعض قبائل البدو الرحل ونهبت اموالها وامتعتها حتى اصبحت فقيرة حقيرة وكان ذلك قبل ولادة مار مرقس او في زمن طفولته وكان ابوه يدعى كريستوبوليس وكان سلفاً لبرنابا وقد هاجر الى فلسطين واستوطن بقانا بالقرب من مدينة اورشليم ثم تمت الصلة بين هذه العائلة وبطرس الرسول بواسطة النسب وهكذا أرضع مار مرقس لبان التعليم المسيحي منذ نعومة اظفاره . ويرجح ان زيارته الاولى لمصر كانت في سنه ٤٥ ب . م (١) والظاهر ان بطرس الرسول كان مرافقاً له في هذه الزيارة كما اسلفنا

وكان مجيئهما الى مصر في قافلة كما هي طريقة السفر في تلك الايام فسارا من سوريا عن طريق الصحراء الى هليوپوليس (عين شمس) ومنها الى بابيلون . وبعد ان مكثا فيها مدة افترقا فعاد مار بطرس الى فلسطين من حيث أتى وانفذ مار مرقس الى الاسكندرية والخمس مدن الغربية كاروزاً ومبشراً ولا يبعد ان قسماً كبيراً من انجيل مار مرقس كتب مدة اقامتهما معاً ببابيلون للاستعانة على عمل التبشير في مصر بواسطة مرقس

ويروى ان اول من اعتنق الديانة المسيحية في مصر على يد مار

(١) قال يوسيفوس المؤرخ ان مار مرقس اتى الاسكندرية في السنة الثانية من حكم اقلوديوس قيصر اي سنة ٤٣ ب .م . وفي تاريخ الاسكندرية انه جاءها سنة ٤٠ ب .م . والذي يراجع الحوادث المذكورة في سفر اعمال الرسل يجد ان جعل سنة ٤٥ تاريخاً لمجيء مرقس الى مصر اقرب الى الحقيقة من سواها .

مرقس رجل اسكاف من الاسكندرية اسمه انيانوس (١) . والذي رأى اسواق الاسكافية في مصر وحوانيتهم الرطبة المظلمة من الداخل وقد علقت على ابوابها صفوف الاحذية من حمراء وصفراء وتحتها تلك المقاعد الضيقة وحولها العمال يتشاغلون بحادثة المارة ـ لا يصعب عليه ان يتصور حالة مار مرقس في بدء كرازته وما اعقبها من البحث والمناقشة مع بائعي الاحذية . وقد جاء في الرواية التي نحن بصددها أن مار مرقس صنع آية مع انيانوس ويرجح انه شفاه من مرض عضال كان لا يرجى شفاؤه منه فاكرمه انيانوس على هذا الصنع الجميل وأخذه الى منزله ضيفاً مدة من الزمن ثم اعتنق الديانة المسيحية على يده فاقتدى به في ذلك خلق كثير . ولما رجع مار مرقس الى فلسطين وكان ذلك في الغالب قبل نهاية سنة ٤٩ ب.م وسم انيانوس اسقفاً على الكنيسة الجديدة ومعه ثلاثة قسوس وسبعة شمامسة

وفي سنة ٥٠ ب.م اجتمع بطرس ومرقس في فلسطين ليحضرا مجمع أورشليم . وبعد ذلك بقليل قصد برنابا وبولس ان يجولا للتبشير والكرازة فطلب برنابا من مرقس ان يرافقه في رحلتهما وكانت نتيجة ذلك ما نعلمه من افتراق الرسولين وتوجه برنابا مع مرقس الى قبرس والى هنا لا يذكر عنهما شيء في سفر اعمال الرسل ولكن يرجح كثيراً ان مار مرقس ذهب حينئذ الى القورينة (سيرين) ثم عاد مارّا بالخمس

(١) قد يصعب ضبط هذا الاسم لاختلاف هجائه في عدة نسخ

مدن الغربية الى الاسكندرية ويؤيد هذا الرأي بعض تلميحات وردت عرضياً في العهد الجديد وكذلك ما ورد في التواريخ المصرية من ان مار مرقس أسس خمس كنائس اخرى بين زيارته الاولى والثانية الى الاسكندرية ومن ضمنها كنيستي القرينة وليبيا

هذا ولا ندري اذا كان مار مرقس بارح الديار المصرية مرة اخرى بعد ذلك ام لا . اما كونه توجه الى روميا مع مار بطرس فهذا اذا صح لا يمكن ان يكون الا في اواخر ايام ذلك الرسول . على ان المؤرخين القدماء باجمعهم لا يؤخذ من كلامهم عن مار مرقس سوى انه بقي في الاسكندرية منذ عودته اليها الى آخر حياته

ويقال انه في هذه الاثناء شيدت الكنيسة الاولى في الاسكندريه بمكان يقال له بوكاليا واقع على شاطيء البحر وان بوكاليا هذه قد صارت فيما بعد ابروشية آريوس الهرطوقي الاكبر . ولكن يبعد كثيراً ان تكون الكنيسة التي استحوذ عليها آريوس هي التي بنيت في ايام مار مرقس لانه يصعب التصديق ببقائها بعد ان توالى الاضطهاد على المسيحيين مع هدم الكنائس وتخريب اماكن عبادتهم مدة الثلاثة قرون الاولى . اما سبب تسمية ذلك الموضع ببوكاليا او بوكاليس فبو على ما ذكره استرابو المؤرخ ان البقعة المذكورة كانت قبلا مرعى للماشية ومن ذلك اشتق اسم المكان

هذا ويوجد بين المؤرخين القدماء اختلاف في نحو سنتين او ثلاث

فيما يختص بحوادث مارمرقس وقد تسبب عن ذلك اختلافهم ايضاً في في تاريخ نياحته ولكن الاقرب الى الحقيقة والارجح ان وفاته كانت في السنة الثانية من ملك نيرون اعني في اوائل سنة ٦٢ ب . م ودليل ذلك ان عيد الآلهة سيرابيس كان يقع يوم ٢٥ ابريل من السنة وكان من اكبر الاعياد عند وثني مصر . فاتفق انه في سنة ٦٢ ب. م وقع هذا العيد في يوم أحد ويقال ان مارمرقس جاهر وقتئذ بتقبيح هذه العبادة وتحريم الاحتفال بالعيد باعتبار انه عبادة وثنية فاهاج بذلك سخط الوثنيين في مدينة الاسكندرية وكان قد شق عليهم ما رأوا من سرعة انتشار الديانة المسيحية حينئذ وابتدأت الفتنة بين المسيحيين والوثنيين في يوم السبت الذي يتلوه العيد فلم يأت مساء اليوم حتى قبض الوثنيون على مار مرقس وربطوه في عنقه بحبل وجروه وطافوا به في اعظم شوارع المدينة الى ان جاء الليل وخيم الظلام فاوصدوه في السجن وهناك ظهر له ملاك الرب في رؤيا فقواه وشدد عزائمه . ولما اصبح يوم الاحد عاد الوثنيون الى السجن فاخذوه مكتوفاً وطافوا به حول المدينة في موكب الآلهة سيرابيس الى ان اسلم الروح وبموته انتهت آلامه ودفن في كنيسة بوكاليا ومن ذلك العهد كانت لا تنتخب بطاركة الاسكندرية الا على قبره المجيد واستمرت هذه العادة متبعة قروناً عديدة بعد ذلك

اما الكنيسة القبطية المصرية التي هكذا اسسها مارمرقس فقد حافظت الى الان على نظاماتها وطقوسها الاصلية اكثر مما حافظت آية كنيسة

اخرى من عهد مؤسسها الى هذا اليوم فهي اذاً اقل الكنائس اختلافاً عما كانت عليه حين نشأتها . وفيها بقيت سلسلة المراتب الكهنوتية الثلاث متصلة بغير انقطاع الى يومنا هذا وهي الاسقفية والقسوسية والشموسية غير انها لسوء الحظ قد وقعت في الفخ الذي هوت فيه بقيت الكنائس المسيحية وذلك انها بعد بضعة قرون من عهد تاسيسها فرضت العزوبة على بطاركها واساقفتها بطريق الالزام ولكنها لم تشط مع ذلك عن القاعدة الاصلية الى درجة تعميم هذا الالزام على طبقات الاكليروس الصغرى كما فعل غيرها بل جعلت الزواج لهم سنة لا تزال مباحة الى اليوم كما هي عند الاكليروس اليوناني ايضاً على عكس ما جرى عليه كهنة الكنيسة الغربية واكليروسها على وجه العموم

ثم ان الكنيسة القبطية قد حافظت ايضاً من عهد نشأتها على الاسرار السبعة الكنائسية ولكنها تعتبر ان اثنين منها فقط ضروريان للخلاص وهما المعمودية والنشاء الرباني . على انها في القرنين الثالث والرابع كانت على الدوام تؤجل عماد الاشخاص الى الساعة الاخيرة من حياتهم . وتوجد الى هذا اليوم عادات كثيرة في الكنائس الغربية منقولة في الاصل عن قدماء المصريين في عهد نشأة الكنيسة القبطية . فمن ذلك مثلاً الحلة البيضاء (التونية) التي تلبس وقت الخدمة الكنائسية فانما هي عبارة عن جبة الكتان البيضاء التي كان يلبسها كاهن ايزيس . ومنها جز الشعر من وسط الرأس فقد كان ايضاً العلامة المميزة لكهنة المصريين

القدماء. ومنها استعمال الخاتم في اكليل الزواج وكان المصريون القدماء يستعملون حلقاً من معادن مختلفة بدلاً من العملة قبل صك النقود عندهم . فكان اذا عقد للرجل على امرأة البسها ساعة العقد خاتماً من الذهب علامة على انه من تلك الساعة جعلها شريكة له في ثروته فاستمرت هذه العادة عند المصريين بعد اعتناقهم الديانة المسيحية ثم نقلتها عنهم الكنيسة المسيحية برمتها

والظاهر ان الصيامات دون غيرها من موضوعات الكنيسة القبطية هي التي كثر فيها التغيير عن الحالة الاصلية بيد ان هذا التغيير لم يطرأ الا من حيث الزيادة في عدد الاصوام وفي صرامتها وشدتها اما القاعدة الاصلية بغض الطرف عن تنوعاتها فكانت تقضي ان رجال الكنيسة بأسرها يصومون اربعين ساعة متوالية من يوم الجمعة الحزينة الى يوم احد القيامة وذلك عبارة عن الزمن الذي يظنون ان السيد المسيح نزل فيه الى الجحيم . ولكن في اواخر القرن الثاني كان صوم الاربعين ساعة قد بدل باربعين يوماً في معظم الكنائس النصرانية ويقال ان الذي جعل الصوم الكبير في مصر اربعين يوماً هو انبا ديمتريوس الذي رسم بطريكا الاسكندرية سنة ١٨٩ ب.م. على ان الكنيسة المصرية قد توسعت في اصوامها تدريجياً بعد ذلك حتى اصبحت وهي تصوم الان اكثر من نصف السنة تقريباً واليك البيان : اربعون يوماً قبل عيد الميلاد وخمسة واربعين يوماً وهو الصوم الكبير قبل عيد الفصح وكثير

من الناس يصومون ايام الآحاد من تلك المدة فتبلغ بذلك خمسين يوماً . ثم أربعين يوماً مد الخمسين وهو المسمى بصوم الرسل ثم ثلاثة ايام في فصل الربيع وهي المعروفة بصيام نينوى او يونان وخمسة عشر يوماً في شهر اغسطس وهو صيام العذراء ثم يوم الجمعة من كل اسبوع لغاية الساعة التاسعة . هذا على ان الصيام عند المصريين ليس في الحقيقة بالامر الهين الذي يستخف به فانهم لا يقتصرون فيه على الامتناع عن اللحم والسمك بجميع انواعهما فقط بل يمتنعون ايضاً عن اللبن والبيض والسمن والزبدة وكل ما يعتبر ذو حياة حيوانية من الكائنات عموماً ولذا تكون أغذيتهم مدة صومهم قاصرة على انواع الفاكهة والبقول النيئة او المطبوخة بالماء او بالزيت والارز والخبز البسيط وباقي الاطعمة النشوية . وبعض العائلات لا تأكل شيئاً الا الساعة الثالثة بعد الظهر في ايام الصيامات . وفي بعض اقاليم مصر يخبز البعض منهم الخبز في اول الصيام دفعة واحدة فقط فيبلغ من الجفاف والصلابة مبلغاً بحيث لو وضعت شيئاً منه في اللبن الساخن مسافة نصف ساعة لما لان بعض اللين . وكثيراً ما خارت قوى الشعب واضناهم الهزال لطول مدة الصوم حتى لقد يعسر على الواحد منهم ان يقوم حينئذ بجميع اعماله المعتادة . على ان القبطي فضلا عما ذكر لا يحل له ان يأكل في المساء ما لذ من الطعام كما يفعل المسلم الذي لا يصوم من سنته كلها سوى ٢٨ يوماً يقضي فيها نهاره على الاغلب نائماً وليله آكلا شارباً ولذا لا يبعد ان

تكون نتيجة هذه الصيامات الطويلة القاسية من جملة الاسباب التي اضعفت عزم الاقباط وحطت من قواهم حتى لقد مضت عليهم الى الآن قرون عديدة لم يشنوا فيها غارة واحدة دفاعاً عن حريتهم واستقلالهم !!!

ثم انه من الموكد بعد البحث ودقة التحري انه في القرن الاول لم يكن بين المسيحيين في مصر رهبان ولا راهبات . غير انه في منتصف القرن الثاني اقتبست من الديانة الوثنية المصرية عادة العيشة الانفرادية والخلوة لاجل التنسك والتضرع والصوم والصلاة عوضاً عن اتمام مواجب الحياة الطبيعية ثم انتشرت هذه العادة من مصر الى العالم المسيحي باسره

تلك هي حالة الكنيسة القبطية التي اسسها مارمرقس وظلت عليها في البأسا والضراء تقاسي الشدائد والضيقات وتحمل المظالم والاضطهادات حتى يومنا هذا حيث يمر بها الوافدون الى مصر من الغربيين لهذا العهد فيتجاهلون وجودها تارة او يهزأون بها طوراً نظراً لما آلت اليه من الهوان والذل . ولكن مهلاً فسترى فيما يلي من صفحات هذا الكتاب تاريخاً يزري بتواريخ اعظم الكنائس المسيحية مقاماً وشأناً وسيأتي يوم فيه يجلس رأس الكنيسة للقضاء بحسب عدله لا بحسب فكر الانسان وفي ذلك اليوم يسمع قوله «ويكونون لي قال رب الجنود كل الذين يخافون اسمي في اليوم الذي اجمع فيه جواهري»

الفصل الرابع

﴿ بطريرك واحد وسبعة قياصرة سنة ٦٢ ب . م ﴾

هذا هو الثاني من بطاركة الكرسي الاسكندري واسمه انيانوس وغاية ما ينبئنا عنه التاريخ انه اخلف مار مرقس على كرسي الاسكندرية سنة ٦٢ ب م وساس الكنيسة بحكمة وفطنة مدة ٢٢ سنة وفي اثناء رئاسته تولى على العرش الامبراطوري الروماني سبعة امبراطرة على التتابع وهم نيرون الظالم (وكانت وفاته بعد ست سنوات من تاريخ تولي انيانوس كرسي البطريركية) ثم جالباو اثو وفيتليوس وفسباسيان وتيطس ودومتيان وكان الوالي الروماني على مصر في سنة ٦٢ ب.م بابيليوس الذي اخلف طيباريوس اسكندر منذ سنة ٥٦ ب.م والظاهر انه كان ذا عناية واهتمام بامر البلاد التي عين حاكماً عليها من قبل المملكة الرومانية . فانه ألف تاريخاً للديار المصرية ولكن عبثت به ايدي الضياع ولم يبق منه الآن لسوء الحظ شيء . وقد اتخذ ديونيسوس المؤلف الشهير الذي كان مديراً لدار الآثار المصرية وزيراً له . ولكن يظهر ان بابيليوس لم يكن مع ذلك محبوباً من المصريين بدليل ان الامبراطور جالبا الذي تولى الامبراطورية بعد نيرون عزله على الفور وعين مكانه طيباريوس يوليوس اسكندر ابن

اسكندر الوالي الاسبق وابن اخ فيلو اليهودي (انظر الفصل الاول) فكان طيباريوس وانيانوس متحدين من حيث الجنسية والوطن غير ان الاول كان على ما يظهر قليل التمسك بدينه اليهودي كما كان ابوه من قبله . ويوجد لهذا العهد بالواحة الكبرى نقوش خلدت ذكرى المنشور الذي اصدره طيباريوس هذا لرفع ما كان يثقل كاهل المصريين من المظالم والمغارم التي كان قد فرضها عليهم تيرون . فمن ذلك تاكيد هذا الوالي لرعاياه المصريين بعدم اكراه احد منهم في المستقبل على قبول وظيفة التزام الخراج في الاقاليم وعدم الغاء البيوع بحجة مديونية المشتري للحكومة الامبراطورية وابطال عادة سجن الاحرار من الرعية بسبب عدم الوفاء بدين على احدهم لآخر ما لم يكن المدين هو الحكومة او الخزينة الاميرية

اما لغة هذا المنشور فكانت كغيره من الاوامر والمنشورات اللغة اليونانية وهو امر يدل دلالة واضحة على انه بالرغم عن تسلط الرومان على مصر كل هذا الزمن لم يعتر احوالها ادنى تغيير عما كانت عليه قبلهم فلم تكتسب اللغة اللاتينية ادنى شيوع بين المصريين ولا اقتبسوا هم شيئاً من العوائد الرومانية ولا يخفى ان هذا من الغرابة بمكان . غير انا اذا دققنا النظر في ذلك نجد ان تلك المملكة الرومانية العظيمة التابعة لها مصر لم تكن رومانية الا بالاسم فان القياصرة الاول الذين كانوا رومانيين حقيقة لم يهمهم من امر مصر سوى ما يتعلق بتوسيع نطاق خراجها ثم ان عرش المملكة اصبح من بعد القرن الثاني هدفاً لاطماع

ذوي البأس من اخلاط مختلفي الجنس من يونان وافريقيين وبربر وسوريين لا يعنيهم طبعاً شأن رومية الا باعتبار كونها مظهراً خارجياً لرونق ملكهم وشوكة اقتدارهم . هذا وسيظهر لك فيما يلي ما كان لتغيير عاصمة المملكة الرومانية من التأثير على المملكة عموماً والقطر المصري وبلاد الشرق خصوصاً

اما اوثووفيتليوس اللذان تعاقبا على كرسي القياصرة بعد جالبا فلم يتركا اثراً يذكر لهما في مصر لقصر مدة حكمهما . وكان فسباسيانوس الذي خلفهما يحارب حينئذ كقائد في فلسطين فصمم على ان يكون قيصراً وكتب اولاً الى طيباريوس اسكندر والي مصر يقول له ان الجيش هنا قد بايعني الامبراطورية فهل لي ان اعتمد على عضدك في هذا الامر وعلى بيعة الجند الذي في مصر . فلبى طيباريوس الطلب على الفور واقرت مصر بالامبراطورية لفسباسيانوس بالاجماع مع علم اليهود فيها بالحرب العوان التي كانت قائمة وفتئذ بينه وبين ابناء جلدتهم في فلسطين وتنكيلهم اشد تنكيل ولعل في ذلك ما يوجب الاستغراب . على ان يوسيفوس المؤرخ اليهودي الشهير الذي دافع عن يوباطا (احدى مدن فلسطين) دفاع الابطال حين محاصرة الرومان اياها — كان قد اصبح بعد سقوطها في يدهم من اخص اتباع فسباسيانوس واعظمهم تمسكاً بعروة الاخلاص والولاء له

وبقي فسباسيانوس مدة في بيروت استراحت في اثنائها فلسطين

من اوضار الحرب والجهاد حتى ورد اليه النباء المبشر بان القائد الذي ارسله الى رومية لكي يستلم زمامها بالنيابة عنه قد تم له الامر على ما يشتهي ويختار . فبارح اذ ذاك بيروت قاصداً مدينة الاسكندرية للاقامة بها بعض الزمن صارفاً نظره عن رومية موقتاً اعتماداً ولا شك على وجود ابنه دوميتيان بها وقيامه مقامه في ادارة الاحكام . فلما قدم فسباسيانوس الى الاسكندرية هرع علماؤها وحكامها لمقابلته بكل مظاهر التعظيم والاجلال وكان بالاسكندرية يومئذ ثلاثة من مشاهير الفلاسفة وهم يوفراتيس الافلاطوني وديون الملقب بفم الذهب وابولونيوس الفيثاغورسي الشهير الذى وضعه فيلوستراتس في مصاف الانبياء والمرسلين في الرسالة التي كتبها تاريخاً لحياته بعد موته وشبهه فيها ظاهرياً بفيثاغورس الفيلسوف ومراده في الحقيقة تشبيهه بالسيد المسيح نفسه كما لا يخفى على من امعن النظر فيها ولاحظ الغرض من تأليفها على نسق الاناجيل المقدسة

وكان ابولونيوس ملازماً للقيصر فسباسيانوس طول مدة اقامته في الاسكندرية وخدمه خدمات جليلة باستمالة قلوب الاسكندريين اليه الى درجة انهم اصبحوا يعتقدون فيه القدرة على شفاء الامراض بمجرد لمس المريض كما كان الجاهلية يعتقدون في ملوكهم قديماً . فقد روى تاسيتوس المؤرخ ان رجلين احدهما كفيف البصر والآخر اكتع اليد طرحا نفسيهما تحت قدمي فسباسيانوس وهو سائر في احد شوارع الاسكندرية متوسلين اليه ان يلمسهما حتى ينالا منه الشفاء . فسخر

القيصر بهما أولاً غير أن ما رآه من تظاهر اطباء الاسكندرية حينئذ من مشاركتهم العامة في هذا الاعتقاد حمله على اجابة الطلب والظاهر ان عمليته لم تخب اذ قد شهد اصدقاء الامبراطور ان الرجلين شفيا بهذه الوسيلة

وكان فسباسيانوس يتظاهر بشدة الميل الى ديانة المصريين فلم يتأخر عن زيارة هيكل معبودهم سيرابيس واستطلاع انبائه عن مستقبله ومستقبل مملكته وعلق كثيراً بالاسكندرية فمكث بها بضعة شهور بعد ما انفذ ابنه تيطس الى فلسطين ثانية لانهاء الحرب مع اليهود ولكن اهل الاسكندرية كانوا سريعي التقلب فلم تدم محبتهم لفسباسيانوس طويلاً لا سيما وقد أثقل الرجل كاهلهم بالضرائب عوضاً عن ان يغدق عليهم الانعامات كما كانوا يأملون منه . ومما زاد الطين بلة انه مرة طالب صاحباً له بدين كان قد وفاه به فذاع خبر ذلك في المدينة حتى بلغ من بعض العوام ان اتخذوا الامر موضوعاً للهكم والسخرية به فلما علم فسباسيانوس بما كان من ذلك استشاط غيظاً وحنقاً وامر في الحال بضرب جزية قدرها ستة افلاس (وهو مقدار الدين الذي كان له) على كل فرد من اهل المدينة تأديباً لهم على هذه الجرأة . بيد انه لم يلبث ان صفح عنهم اجابة لتوسلات ابنه تيطس الذي كان احسن منه سياسة وتدبيرا ولكن هيهات ان تعود بذلك محبة الشعب الى ما كانت عليه أولا فرحل فسباسيانوس عقب ذلك الى رومية ولم ينتظر نهاية الحرب في فلسطين كما كان ينوي

فلما كان فصل الخريف من سنة ٧ ب.م وردت الاخبار بعد طول الانتظار منبئة بسقوط مدينة اورشليم . وقد بلغ عدد الاسرى الذين اخذوا من اليهود بسقوطها ٩٧ الف نسمة سيقوا جميعهم ارقاء ليعملوا في معادن مصر بالاخص . وكان لمسير هذا الجيش الكئيب وراء تيطس الظافر منظر تتفطر له الاكباد لا سيما وقد تبعهم العدد الغفير من سكان أورشليم التعيسة حيارى اذلاء بلا مأوى ولا زاد يبتغون ملجأ وملاذا بارض مصر آملين أن يتفيأوا هنالك في ظل اخوانهم الاغنياء ومن ذلك العهد أخذ اليهود في المهاجرة من بلادهم الى مصر افواجاً افواجاً ولكنهم لم يلبثوا ان قلقوا بافعالهم خواطر يهود الاسكندرية الذين باتوا في خوف على انفسهم منهم بما اثاروا من الشغب والهياج على الحكومة الرومانية والمجاهرة بتعنيف اخوانهم المصريين على خضوعهم لها واستسلامهم الى سلطة القيصر صاغرين وحضهم اياهم على القيام للحرب والكفاح دفاعاً عن حريتهم ووطنهم الذي اصبح قاعا صفصفاً . ولا بدع اذا كانت الدعوى الى هذا الجهاد لم ترق في اعين يهود مصر الاغنياء المترهفين لما يعلمون من انهم يكونون هم الخاسرين على كل حال بلا محالة اذا اشهروا راية العصيان ولذلك لما رأوا تفاقم الشر من اولئك المهاجرين (وكانوا يلقبونهم بالاشقياء) عقدوا جمعية من اكابر يهود الاسكندرية قرروا فيها ان راحتهم وسلامتهم تتوقفان على القاء القبض على هؤلاء المحرضين وتسليمهم ليد الحكومة حتى بذلك ينفوا عن انفسهم

شبهة الاتحاد معهم على ما ينوون من العصيان والثورة . وبناء على هذا القرار قبض على نحو ٦٠٠ نفس دفعة واحدة من هؤلاء المتفانين في حب وطنهم بعد ان هرب منهم خلق كثير الى الارياف أمسك معظمهم في ما بعد وأعيدوا الى الاسكندرية حيث اذيق الجميع انواع العذاب لكي يحلفوا يمين الطاعة والولاء للامبراطور فسباسيانوس ولكنهم رفضوا ذلك باجمعهم حتى الاطفال منهم مفضلين الموت على فقد الاستقلال والحرية وهكذا قتلوا عن بكرة ابيهم . والظاهر ان هذا هو السبب فيما يشير اليه المؤرخون المسيحيون الاول بقولهم أن مدة رئاسة البطريرك انيانوس لم تكن مدة سلام وأمان وان كان هؤلاء المؤرخون لم يذكروا ادنى تفصيل عما كان له من الشأن في أثناء تلك الاضطرابات والقلاقل على ان لهيب الثورة بين اليهود اندلع وقتئذ بسرعة حتى وصل ايضاً الى القورينة حيث قام رجل حائك يدعى يوناثان منادياً فيها بالحرب لانقاذ الوطن محرضاً على ذلك الطبقة الوسطى من ابناء جلدته دون الاغنياء على ما قاله يوسيفوس المؤرخ . فلبى كثير منهم دعوته وسار في جيش منهم كثير العدد ولكنه قليل العدد قاصداً ديار مصر معتمداً على معونة سماوية تأتيهم فتساعدهم على الفوز في مشروعهم . غير انهم لم يكادوا يبرحون حدود القورينة حتى افشى اخوانهم الاغنياء سرهم الى كاتلوس والي هذه المقاطعة غدراً وخيانة منهم فافتنى هذا أثرهم على الفور الى ان ادركهم فهزمهم شر هزيمة وفرقهم ايدي سبا . وقد عفى الوالي عن قتل

يوناثان المذكور زعيم هؤلاء الثائرين ولكن على شرط ان يبوح له باسماء اليهود الذين وعدوه بالانضمام اليه حينما يتم له الامر. فكاشفه يوناثان باسماء عدد كبير من اغنى وأقوى رجال اليهود في القورينة والاسكندرية ورومية. ولا ندري اذا كان فعل ذلك وفاء بالشرط على ما تقتضيه الذمة او رغبة منه في الانتقام لنفسه ممن خانوه وغدروا به من ابناء ملته وعلى الحالتين كانت النتيجة ان ثلاثة الاف رجل من اغنياء اليهود في القورينة فقط سيقوا للذبح بلا تحقيق ولا بحث باسباب هذه الحادثة وصودروا في املاكهم واموالهم حسبما رواه يوسيفوس اما بقية من اباح باسمائهم يوناثان من يهود الاسكندرية ورومية فقد رفع كاتلوس امرهم الى الامبراطور وكانت عاقبة ذلك انه امر للحال بقفل هيكل اليهود في مصر وان لا يسمح لهم باقامة العبادة الملية فيه وبذلك كسرت شوكتهم وخفضت كبرياؤهم الى الحضيض

وقد كان هذا الهيكل اشارة الفخر والاعجاب لديهم مدة ٣٤٣ سنة ينافسون به هيكل اورشليم القديم الذي خرب بخرابها. فمد الدهر اليه يده بالاذى فاباد نخرهم بمصر كما انه تناول باليد الاخرى بقية مجد اخوانهم يهود فلسطين حتى اصبح الفريقان سواء في الذل والهوان. ومن هذا الحين تجرد اليهود عن امتيازاتهم الوطنية فعلاً وان لم يجردوا منها شرعاً فصاروا مثل المصريين الاصليين في معاملة الحكومة لهم. وكما ان هيكل اورشليم قد صيره تيطس بحيث لم يبق فيه حجر على حجر كذلك

هيكل اونياس قد اصبح ومكانه الان اقفر مما كان يوم قال الملك بطليموس فيلومتر لاونياس نفسه «عليك بازالة تلك الاطلال الباقية من هيكل ليونتوبوليس حتى تبني هنالك ما تريد» يعني يبني هيكلا لليهود وهو الذي ضن بصدده. ولم يبق من آثار هذا الهيكل للآن سوى آكام من التراب قائمة في وسط تلك الاراضي المخصبة تشوه نضارة وجهها وجمال منظرها وهي محاطة بجدران سوره المزدوج لم تزل قائمة على ارتفاع قليل من سطح الارض المجاورة لها وبها من قدمين الى خمسة اقدام عمقاً من الشقافة وقطع الخزف اما الاحجار فقد اخذها المسلمون على مرور الايام والسنين حتى لم يبق منها حجر واحد وانما بقي اثر ذلك الهيكل المصري القديم الذي كان بناؤه من عهد رعمسيس الثالث وهو عبارة عن كتلة كبيرة جدا من الصوان مع قطع من المرمر الابيض شوهدت في ذلك المكان سنة ١٨٩٣ ب. م. غير انك اذا ذهبت الآن الى ذلك الكثيب القائم في تلك الاراضي الزراعية حيث يتطاير الهدهد بين الاثلام والحزون وحيث اللقلق الناصع البياض يتبختر بين الخضرة الزاخرة — لرأيت مركبات النقل التي حلت الآن محل الجمال تغدو وتروح مشحونة بنفس تلك الشقافة الباقية ذاهبة بها الى حيث تسحق لتستخدم في بناء اماكن ودور جديدة بحيث لا يبقى بعد قليل من الزمن ادنى اشارة أو علامة على هيكل اونياس المار ذكره

اما حالة المصريين الاصليين في عهد فسباسيانوس وتيطس فصارت

الى احسن مما كانت عليه قبلها وذلك بحسن ادارتها وعنايتها بشؤون اهالي المملكة . فقد ذهب تيطس بنفسه الى ممفيس في موكبه الرسمي لحضور الاحتفال بتكريس الثورابيس لما عزم المصريون على اقامته معبوداً بعد سلفه المتوفي . وقد تم في اثناء ملك فسباسيانوس بناء هيكل نيف الفخيم بمدينة لاتوبوليس (اسنا) بعد ان عمل فيه العاملون مدة ثمين من السنين كما هي العادة في بناء الهياكل المصرية . وقد جاء هذا الاثر الجميل محاكياً بفخامته وحسن زخرفه افضل المباني التي شيدها المصريون في عهد وصول فني العمارة والهندسه قمة الكمال عندهم وقد فخر اسم فسباسيانوس في الحل المخصص لذكر المعبود الذي بني الهيكل على اسمه فوق واجهة الباب

وبعد وفاة تيطس تولى الامبراطورية الرومانية دومتيانوس قيصر وفي عهده أرسل جوفنال الشاعر الروماني المشهور لقيادة فرقة عسكرية من الجيش في مصر وكان قد بلغ من الكبر عتياً فمات عقيب وصوله اليها بعد ان سئمت نفسه البقاء فيها بعيداً عن الاهل والاوطان . وقد كتب في غضون هذه الرحلة رسالة عن المصريين اكثر فيها من الانتقاد على اهل الريف منهم ولا سيما ما يتعلق بحيواناتهم المقدسة

وفي اثناء حكم دومتيانوس هذا تنيح البطريرك انيانوس وخلفه ابيلبوس على كرسي البطريركية . ثم انه في عهد الامبراطور نيرفا الذي اخلف دومتيانوس رفعت عن يهود مصر الضريبة الشخصية التي كانوا يؤدونها

منذ ايام البطالسة ومقدارها نصف شاقل عن كل فرد غير ان الضريبة عادت فقرضت عليهم ثانية في عهد احد القياصرة الآتي ذكرهم فيما بعد . اما حالة الكنيسة المصرية مدة حكم هؤلاء الامبراطرة فكانت على ما يرام من الامن والسلم عاملة نامية آخذة في الامتداد والانتشار بسرعة عظمى

الفصل الخامس

رواد النيل في القرن الثاني . سنة ٩٨ ب . م

تولى الحكم بعد دومتيانوس الامبراطور تراجان وكان في اوائل حكمه مشغولاً جداً باحوال اوروبا ومع ذلك تم في عهده مشروعان خطيران في مصر اولهما تجديد الخليج البطليموسي الذي يصل النيل بالبحر الاحمر وكان قد اهمل وانهارت جوانبه فرممه تراجان وزاد في طوله كثيراً حتى اوصله الى بابيلون بعد مروره بمدينة عين شمس . ولا ريب في انه هو الخليج الحالي بعينه وانما رمم مرة ثانية وزيد في طوله قليلاً (نظراً لتحول النهر عن مجراه) في عهد الفتح الاسلامي . والمشروع الثاني بناء قلعة بابيلون العظيمة وهي المعروفة بقاياها الان باسم «قصر الشمع» وهو لهذا العهد يشتمل على ست من اقدم الكنائس المسيحية بالقاهرة .

اما عند انشاء القلعة فلم يكن داخل اسوارها الا كنيسة واحدة وهي المعروفة الان بابي سرجة . هذا وليلاحظ القاريء ان قلعة تراجان هذه هي غير القلعة القديمة التي ذكرها استرابو المؤرخ وكان موقعها الى الجنوب من قصر الشمع بالقرب من دير بابيلون الحالي

ولا حاجة بنا هنا الى ذكر الرسائل التي دارت بين بلبني الاديب الروماني والامبراطور تراجان عن احوال المسيحيين في ذلك العصر اذ لامساس لها بمسيحيي مصر فضلاً عن ان شهرتها تغني عن الذكر . اما سياسة تراجان مع المسيحيين فكانت غالباً سياسة تساهل وتسامح غير ان استشهاد القديس اغناطيوس اسقف انطاكية في ايامه يعتبر نقطة سوداء في تاريخه . وفي السنة الثامنة عشرة من ملك تراجان عادت المنازعات والمنافسات بين اليونان واليهود في الاسكندرية وتفاقم الخطب حتى آل الامر الى قيام اليهود عموماً على الدولة الرومانية واشهارهم راية العصيان عليها في مصر وقورينة فحاول لوبوس الوالي الروماني ان يقمع ثورتهم فلم يتغلب على الثائرين وكانوا تحت قيادة رجل يدعى لوكاس من يهود قورينة فبقي بهذا الاقليم مدة سنتين يحارب الرومان ويعثو في الارض فساداً حتى اصبحت هذه المقاطعة الاسيفة تئن من اهوال تلك الحرب الداخلية الى أن انفذ الامبراطور اخيراً القائد مارسيوس توربو بجيش جرار الى مصر لمحاربتهم وبعد قتال عنيف جرى في عدة مواقع انهزم اليهود شر هزيمة وقتل الوف منهم وجردوا عقيب ذلك من امتيازاتهم الوطنية تجريداً

شرعياً وبذلك ضاعت آمالهم وخابت احلامهم فيما كانوا ينتظرون من عودة الملك اليهم ومن ذلك العهد اصبحوا يمتقون الديانة المسيحية افواجاً افواجاً

وبعد هذه الحرب الاصلية بمدة وجيزة مات الامبراطور تراجان وخلفه ادريانوس الذي شرع في السنة الرابعة من ملكه يطوف الولايات الرومانية متفقداً بنفسه جميع انحاء مملكته . فلما حل ركابه الامبراطوري القطر المصري سار صعداً في النيل ومعه انطينوس صديقه الحميم وهو غلام اوربي ذو جمال باهر . واتفق ان انطينوس لاقى منيته في اثناء هذه السياحة النيلية ولم تعرف الى الآن اسباب وفاته الحقيقية غير ان الرواة يزعمون انه قدم نفسه باختياره ضحية عن سيده ومولاه الامبراطور وتفصيل ذلك انه في اثناء عودة الموكب الامبراطوري من الوجه القبلي راكباً تلك القوارب النيلية مزدانة بالزخارف والاعلام وفيها اجواق الموسيقى تعزف بنغماتها الشجية المطربة وبها من دواعي الحظ والانس ما يشرح الخاطر ويسر الناظر — كما حصل في احتفالات الملوك والعظماء في النيل قبل ادريانوس وبعده بالآف من السنين — فخالج الامبراطور شيء من الخوف والكآبة وهو محاط باسباب السرور والحبور الآنف ذكرها كانما حدثته نفسه ان سروره وغبطته قد بلغا درجة عظيمة قد تستوجب حسد الآلهة له عليها وانه لا بد لتسكين ثائرها من تقديم ضحية مهمة ترضيها والا حل به الخراب والدمار عاجلا . ففكر انطينوس الذي كان

يحب مولاه حباً يرخص معه كل غال وفطن بفراسته الى سبب حزن سهده مما رآه من خوفه واضطرابه فسار في الحال الى اتمام ما خطر بباله بان القى بنفسه في النيل معلناً انه لما كان على يقين من ان منزلته عند مولاه فوق كل شيء هانت عليه الحياة حباً بدوام سعادة ذلك المولى. هذا ومعلوم عند قراء التاريخ ما اصاب ادريانوس من الحزن المفرط لموت حبيبه وكيف انه اصدر اوامره بوجوب اعتباره بمنزلة الآلهة وقد اسس مدينة في المكان الذي بذل انطينوس نفسه فيه لاجله وسماها مدينة انطينوس تذكاراً له وهي التي صارت بعدئذ عاصمة لصعيد مصر اما الآن فحلت محلها قرية صغيرة تدعى البرشا (بمديرية المنيا). وقد اطلق ايضاً اسم انطينوس على نوع من زهر البردي المصري اكتشفه وقتئذ الشاعر بنكراتيس الاسكندري وقدمه للامبراطور عند رجوعه من سياحته وهو يمتاز عن الزهر المعروف لهذا النبات بكونه وردي اللون ليس بالازرق ولا بالابيض. وممن كان بالاسكندرية من مشاهير الكتاب في ذلك الوقت غير بنكراتيس السالف الذكر ابو لونيوس ديسكولوس النحوي وكانت له مؤلفات عديدة ضاعت كلها تقريباً ولم يبق منها سوى مجموعة في آداب المصريين واخرى تشتمل على حكايات خرافية ومنهم ابيان المتشرع الروماني الشهير وكان قد صرف عدة سنوات في رومية ثم كتب تاريخاً رومانياً بعد عودته لوطنه

وفي سنتي ١٣١ و١٣٢ ظهر يهودي آخر اشتهر باسم البار كوشبا

(ومعناه ابن النجم أو كما فسره بعضهم ابن الكذب) ورفع راية العصيان على الحكومة الرومانية في فلسطين وصادف عمله بعض النجاح في اول الامر فسار للانضمام اليه جيش من يهود مصر وليبيا ثم اشتبك القتال بينه وبين تينيوس روفوس الروماني والي اليهود واستظهر عليه العصاة فاستدعت الحكومة الرومانية القائد سفيروس من بريطانيا لمحاربته وجرت بينهما حروب دموية استمرت نحو اربع سنين وانجلت اخيراً عن انهزام العصاة وتبديد شملهم

وفي سنة ١٣١ ايضاً زار ادريانوس مصر مرة ثانية ورافقته في هذه الزيارة امرأته الملكة صابينا ومعها زمرة من نساء الامراء وعقيلات الكبراء والاعيان وركب النيل معهن مرة اخرى اجابة لالتماس الملكة صابينا منه الفرجة على تمثال ممنون الشهير بصوته الموسيقي وهو احد التماثيل الهائلة التي بصحراء ثيبة شيده الملك امونحوتب الثالث في هيكل خاص لم يبق شيء من آثاره الآن لعظم قدمه. فلما زارت الملكة ذلك المكان رأت التمثال في حالة ازداء مما هو عليه الآن نصفه الاعلى ساقطاً ملقى على الارض قطعاً ولم تسمع ذلك الصوت يخرج من شفتيه اذ وقفت بجانبه يحف بها اعضاء معيتها منتظرة حدوث هذه العجيبة وقت شروق الشمس على التمثال. غير ان مجرد اظهار استياء الامبراطور من الكهنة بهذا الشأن كان كافياً لصدور تلك النغمات الموسيقية الرخيمة من التمثال في صباح اليوم الثاني وتشنيف آذان الملكة واترابها بسماعها. وقد نقش عدة ممن

في معية الملكة اسماءهنّ على قاعدة التمثال كما يفعل السياح اليوم .وكتبت احداهنّ هي جوليا بالبيلا (ابنة كلوديوس بالبيلوس الذي ولي مصر في عهد نيرون وألف تاريخاً لها) ابياتاً من الشعر على اسفل التمثال ذكرت فيها نسبها الذي يتصل بانطيوخوس ملك كوماجين (احدى مقاطعات سوريا) وزيارتها لثيبة مع الامبراطور وقرينته . ومكث ادريانوس هذه المرة بمصر نحو اربع سنوات كانت اكثر اقامته فيها بالاسكندرية . وفي اثناء زيارته المرة الاولى لمصر (سنة ١٢٢) توفى البطريرك بريموس واخلفه يسطس الذي قيل انه احد الذين عمدهم مارمرقس وكانت ولايته قبل زيارة ادريانوس الثانية لمصر بسنة واحدة وخلفه على كرسي البطريركية يومينيس وقلما يعرف عنه شيء

ومن الاشاعات المتواترة ان المسيحيين في الاسكندرية ذاقوا عذاب الاضطهاد مدة حكم تراجان ثم في عهد ادريانوس ايضاً غير اننا لم نعثر على ما يؤيد ذلك في التواريخ التي يوثق بصحتها ولكن من المحتمل كثيراً ان من المسيحيين من اضطهدوا باعتبار كونهم يهوداً في ايام العصيان الذي حصل مدة هذين الامبراطورين حيث كان ينظر اليهم غالباً في القرن الاول والثاني كانهم شيعة يهودية متطرفة يخشى شرها . وفضلاً عما تقدم فقد كانت مصر على الدوام مصدراً للمراطقة من ذوي العقول المضطربة حتى انه في مدة زيارة ادريانوس لمصر المرة الثانية كانت انقسامات المسيحيين وتعدد مدارسهم بالاسكندرية قد وصلت الى درجة

يلتمس معها العذر لذلك الامبراطور فيما وقع فيه من الابهام وسوء الفهم بشأن حقيقة امر المسيحيين والدين المسيحي . فقد كان كربوكراتيس وباسيليدس وفالنتينيان وجميعهم مصريو الجنس يتفننون وقتئذ في الباس القواعد الدينية ثوب المجاز والرمز مجتهدين في اذاعة تعليمهم ومذهبهم بالاسكندرية . ثم قد عد هؤلاء الثلاثة بعد موتهم من الهراطقة ولكن لا يوجد برهان صريح على أن الكنيسة حكمت على أي منهم بالهرطقة في اثناء حياته وربما كان ذلك لانهم كانوا يؤمنون بالحقائق الجوهرية في الديانه المسيحية وانما أثموا لانهم كانوا يحاولون مزج اسرار الديانة الوثنية المصرية وغوامض رموزها بقواعد الايمان المسيحي البسيطة . ولا ريب في انه قد كان الاولى بهم عدم التعرض للخوض في مباحث التوحيد والتثليث وامر خلق العالم وتركيبه وما اشبه من المطالب العويصة بل حبذا لو امكن تخصيص الاشتغال بمثل هذه المسائل بمن تدربوا على مزاولتها فقط من ذوي الفكر السليم الذين حصلوا على التربية المؤهلة لذلك كما كانت العادة عند كهنة المصريين القدماء على ما ارشدتهم اليه حكمتهم ونجابتهم . على اننا لانخال ما بلغ ادريانوس من امر الدين المسيحي لذلك العهد الا نتيجة افكار هؤلاء المتطفلين كما يظهر من الخطاب التالي وهو بنصه (١) : —

« من ادريانوس قيصر الى سرفيانوس القنصل — سلام

(١) يعزي بعضهم هذا الخطاب لغير ادريانوس ويقولون انه كتب قبل هذا الاوان بقليل

«اما بعد فان مصر التي اطنبت لي في مدحها ايها العزيز قد وجدت اهلها على درجة عظيمة من الخفة والطياشة وقلة الحزم يصدقون كل ما يقال ويطيرون مع كل ريح تهب . فالذين يعبدون سيرابيس مسيحيون والذين يدعون انفسهم اساقفة (١) المسيح عبيد سيرابيس . وانك لا ترى رئيساً لليهود او سامريا او شيخاً للمسيحيين الا كان رياضياً وعرافاً ومشعوذاً . بل ان البطريرك نفسه لما جاء الى مصر (٢) قال عنه بعضهم انه يعبد الاله سيرابيس وقال آخرون انه يعبد المسيح . اما المصري من حيث طباعه فهو ميال الى المشاغبات والفتن غير حقود اما من حيث مجموع افراده فهو شعب وافر الثروة آخذ باسباب النجاح فلما ترى فيه رجلاً عطلاً عن عمل يرتزق منه ما يقوم بحاجة معاشه . فبعضهم يصب الزجاج وبعضهم يصنع الورق وبعضهم ينسج الكتان وهلم جراً بحيث انك ترى الاعرج والاعمى حتى الاكتع منهم يشتغلون اوقاتهم فيما يلائم احوالهم من الاعمال الصناعية هرباً من الكسل والبطالة . اما الههم فهو « لا شيء » وهو الذي يعبده المسيحيون واليهود وكل الامم على السواء . واني لا تمنى لو كان هذا الشعب أطيب اخلاقاً مما أرى كما هو شأن الافراد في امة كبيرة كثيرة العدد كالامة المصرية يجدر بها ان تكون صاحبة المقام الاول في بلادها . اما انا فقد منحتهم كل شيء وردت

(١) لم يكن في مصر اساقفة غير البطريرك الى زمن ديمتريوس اما الذين كانوا تحت يد البطريرك فكانوا كهنة وشمامسة فقط ولكن لفيف الكهنة الذين كانوا مع البطريرك في الاسكندرية كان لهم امتيازات خصوصية كما هي عادة الذين يخدمون في الكنائس الكبرى .
(٢) يعني لما ذهب الى مصر قاطبة تمييزاً لها عن مدينة الاسكندرية

اليهم امتيازاتهم القديمة بل زدتهم عليها زيادة تذكر بالشكر » اه

على ان ادريانوس قد صار فيما بعد أعرف كثيراً بحقيقة الدين المسيحي مما كان وقت كتابة خطابه هذا وكان ذلك عقيب مطالعته رسالتين قدمتا له في اواخر عمره من تاليف بعض الائمة المتقدمين في ايضاح حقيقة النصرانية واصول الديانة المسيحية . قيل وكان صاحب احدى الرسالتين ومهديها تواد راتوس وتنسب الثانية لارستيدس . غير انه يبعد عن الظن ان الاول منهما عاش الى زمن ادريانوس بدليل قوله في رسالته المذكورة (حسبما رواه يوسيبيوس الذي قرأها بنفسه) ما نصه « ان بعض الاشخاص الذين صنع فيهم ربنا يسوع المسيح آيات الشفاء لا يزالون احياء » ولذا يكون الارجح ان مقدم الرسالة لادريانوس كان احد اعضاء الكنيسة المسيحية باثينا او الاسكندرية او رومية . واذا ثبت ذلك فلا يلزم الجمع بين قوادراتوس هذا واسقف اثينا المسمى بهذا الاسم المعاصر لادريانوس . أما ارسيتيدس مؤلف الرسالة الثانية فكان فيلسوفاً مسيحياً من مدينة اثينا وقد امكن العثور على رسالته في احد المدافن المصرية من عهد قريب بعد ان ظلت مفقودة عدة قرون

ثم ان آثار المذهب الاغنوسطي كانت ظاهرة وقتئذ حتى على بعض المسكوكات المستعملة في عهد الامبراطور ادريانوس حيث تنوعت اشكالها وكثر عددها الى درجة لم يسبق لها مثيل في عهد غيره . فكان لكل مركز واقليم في القطر المصري نقود خاصة به منها ما كان منقوشاً عليه بعض

رموز المذهب الاغنوسطي ومنها ما رسم عليه بعض التماثيل المصرية ومنها ما يمثل رأس انطينوس المتأله (الذي اقتدى مولاه). هذا وقد اشاع بعضهم ان ادريانوس شيد في أواخر عمره هياكل بدون اصنام او تماثيل على نية تكريسها لعبادة المسيح فيما بعد . وقد لايخلو هذا القول من صحة فيما يتعلق بتشييد تلك المعابد ولكن لا دليل يعول عليه في اثبات تلك النية لادريانوس . وقد توفى هذا الامبراطور بعد مبارحته الديار المصرية بثلاث سنوات وبموته كانت نهاية ملكه ونهاية مدة الالف واربعمائة وستين سنة الثانية المقدرة للدورة الشمرى اليمانية وفي نهايتها يتوافق افتتاح السنة المدنية مع السنة الدينية عند المصريين

الفصل السادس

المدرسة اللاهوتية الاولى . سنة ١٣٨ ب . م

كانت فاتحة حكم انطونينوس في مصر اعادة مساحة جميع السكك العسكرية في هذه البلاد فعرفت من ذلك الوقت بخطط انطونينوس وكان عدد هذه الطرق ستاً — ثنتان منها تمران ببابيلون الاولى آتية من بلاد النوبة (اونوبيا) وهي التي بعد اجتيازها ببابيلون تمر في وسط الاقاليم التي يقطنها اليهود حتى تصل الى كليسما . والثانية التي تمر من

ممفيس الى بيلوزيوم مجتازة النيل عند بابيلون . وقد انشأ انطونينوس ايضاً ميداناً لسباق الخيل بمدينة الاسكندرية وزاد على عدد ابوابها اثنين جديدين هما باب الشمس وباب القمر . ثم مما يدلنا على ان الديانة الوثنية القديمة كان بها الذلك العهد بقية من الحياة ما تم في مدة حكم هذا الامبراطور ايضاً من انشاء هيكل جديد في الواحات الكبرى باسم (امون نف) المعبود المصري . وهنالك رواية لا نرى موجباً للارتياب في صحتها ولذا نثبتها هنا وهي انه في عهد الامبراطور انطونينوس ايضاً — اي نحو سنة ١٥١ ب . م — عزم القديس فرونتونيوس على ترك العالم زهداً في الدنيا وملاذها فجمع اليه جماعة من الاخوة وسار بهم الى وادي الطرون (في مديرية البحيرة) وهنالك قضوا بقية حياتهم بالنسك والتعبد في بعض الكهوف الصخرية فكان ذلك عبارة عن تأسيس اول دير مسيحي

وفي سنة ١٦١ ب . م توفي الامبراطور انطونينوس وخلفه مرقس اوريليوس الذي كان قد تبناه في حياته . وكان هذا الامبراطور قد ربي على مبادىء الفلسفة الرواقية بواسطة استاذه ديوغنيطوس فبقي شديد التمسك بها واشتهر خصوصاً بانكاره المعجزات والاحلام. وفي مدة حكمه كان القتل أمراً محتوماً على كل من اعترف بالدين المسيحي او أتهم به فكان المسيحيون في اوقات الاضطهاد يساقون للمحاكمة كمجرمين لامتناعهم عن عبادة الآلهة الكاذبة او بحجة انهم كفرة ملحدون لا يؤمنون بآله . وقد كتبت حينئذ عدة رسائل دفاعاً عن الدين المسيحي

والمسيحيين منها رسالة ثانية للقديس يوستينوس مارتيروس ومنها رسالة الى ديوغنيطوس مهذب مرقس اوريليوس اجمع الناقدون على استحسانها والاعجاب بها بل احلها الجم الغفير من المسيحيين المنزلة الثانية من الاعتبار بعد رسائل العهد الجديد القانونية . وقد بقي الناس عدة قرون معتقدين بصحة نسبة هذه الرسالة الى يوستينوس ايضاً غير ان ابحاث العلامة كورتون الحديثة اسفرت عن الحقيقة في هذا الشأن وهي ان كاتبها رجل اسمه ابروسيوس من اكابر بلاد اليونان كان قد اعتنق الدين المسيحي فاهاج ذلك عليه ذويه ووجوه وطنه . على ان اتعاب يوستينوس وامبروسيوس هذه لم تأت بفائدة تذكر فان الاول مات شهيداً في رومية بين سنتي ١٦٦ و ١٦٧ وكان قد استشهد قبله ببضع سنين مار پوليكاربوس في ازمير وبعده في سنة ١٧٧ أهلكت بلاندينا ورفيقاتها في مدينة ليونس . هذا والظاهر ان يوستينوس لم يأت مصر الا مرة في حياته كعابر طريق غير ان مدينة الاسكندرية لم تكن حينئذ في حاجة الى المزيد من مشاهير الاساتذة والعلماء المسيحيين سواء كانوا هراطقة او من ابناء الكنيسة الجامعة بدليل ما ظهر من ثمرة اعمالهم في ذلك الحين بانضمام كثيرين من اشراف الوثنيين واكابرهم الى احضان الكنيسة المسيحية . فمن هؤلاء اثناغوراس الفيلسوف الاثنوي وكان يشغل وظيفة عالية مهمة بالمتحف الاسكندري ويعتبر من اساطين الديانة الوثنية بالاسكندرية وكان كغيره من الفلاسفة الافلاطونيين كثير البحث

في امر الديانة المسيحية طمعاً في كشف اغلاطها واظهار فسادها فانكب على درسها باجتهاد عظيم وكانت النتيجة الطبيعية انه اعتنق الديانة المسيحية وقد استمر بعد ذلك على لبس رداء الفلاسفة ولم يمتنع عن وظيفة التدريس بيد انه اصبح من اعظم انصار النصرانية واكبر المدافعين عنها . ومما كتبه لهذا الغرض رسالة عنونها الى مرقس اوريليوس وكومودس ويظن ان تاريخها بين سنتي ١٧٦ و١٧٧ ب.م

ومن معاصري اثناغوراس في ذلك الوقت كلوديوس بطليموس العالم الجيوغرافي الشهير وكان ايضاً فلكياً ماهراً تخرج من مدرسة الاسكندرية الرياضية ومن تآليفه كتاب في الالحان الموسيقية وجدول يحتوي على ارصاد فلكية عن الكسوف والخسوف لمدة ثمانمائة سنة سابقة لعهده . وقد اتم معظم هذه الارصاد في بابل اشور واكمل باقيها في بابيلون المصرية كما يظهر من اسماء اماكن خطوط الطول والعرض التي ذكرها

وبعد قمع ثورة اليهود التي حدثت سنة ١٣٥ ب . م استتب السلم وساد الهدو فاخذت الديانة المسيحية تمتد في مصر امتداداً عظيماً حتى كان من ذلك انه في اواخر هذا القرن تأسست المدرسة المسيحية الشهيرة المعروفة بمدرسة الاسكندرية اللاهوتية وان كان تاريخ افتتاحها واسم مديرها الاول لم يزالا غير معروفين حق المعرفة . على انه من سوء الحظ ايضاً اننا لا نعلم شيئاً كثيراً عن تاريخ حكم مرقس اوريليوس في مصر بل غاية

ما اتصل الينا انه في سنة ١٧٢ ب .م جاهرت الجنود المصرية بالعصيان على القائد الروماني فحاربتهم الجنود الرومانية تحت قيادة افيدوس كاسيوس وبعد عدة وقائع عنيفة استظهر عليهم . ثم ان افيدوس هذا طمحت انظاره بعد ذلك الى الامبراطورية فنادى بنفسه امبراطوراً سنة ١٧٥ فتأهب مرقس اوريليوس الى قتاله وسار اليه بجيش اخر ولكن قبل وصوله الى مصر وردت اليه البشائر بان الجند الروماني فيها قام على القائد المذكور وذبحه هو وابنه معلناً بذلك عودته للطاعة والولاء . فاستمر مرقس في سيره الى ان بلغ الاسكندرية فمكث بها زمناً نال فيه من رضاء اهلها وثناء فلاسفتها وعلمائها ما لم ينله امبراطور قبله وذلك بحلمه ودماثة اخلاقه . والظاهر انه في اثناء هذه الرحلة قدم اثناغوراس الى الامبراطور رسالته السالفة الذكر اما في اثينا او بالاسكندرية ولم نسمع بعد ذلك بحصول اضطهاد بمصر في مدته مع ان الاضطهاد وقع في ليونس في السنة التالية

ثم اننا في السنة الاولى او الثانية من حكم الامبراطور كومودس الذي اخلف مرقس اوريليوس على المملكة الرومانية نرى بنتينوس متقلداً رئاسة المدرسة اللاهوتية . والظاهر ان بنتينوس هذا ومعاصره اكليمنضس الاسكندري الذائع الصيت كانا كلاهما تلميذين لاثناغوراس المار ذكره وكانا كباقي مسيحي مصر الاولين متضلعين في علوم القدماء وحكمتهم كتضلعهما في كل الحقائق والمباديء المسيحية الصحيحة . وكان

بطريرك الاسكندرية فى ذلك الوقت انبا يوليانوس الذي تبوأ الكرسي البطريركي بعد اغريبانوس في سنة ١٧٩ ب.م وهي السنة الاخيرة من ملك مرقس اوريليوس

ويروى في امر رسامة خلفه انه لما احس يوليانوس بدنو اجله ظهر له ملاك الرب في رؤية او في حلم واخبره ان الرجل الذي يأتيه بهدية من العنب في اليوم التالي يكون هو الذي اختاره الله خلفاً له على كرسي البطريركية . فلما كان الغد جاءه الرجل واذا به شاب لا علاقة له بالاكليروس مطلقاً بل هو فلاح مصري امي متزوج وقد احضر معه عنباً من محصول كرمه . فلما قيل له انه انتخب ليكون بطريركاً توسل بضراعة ملتمساً اعفاءه من حمل هذه المسئولية الهائلة فلم يلتفت الى طلبه وتمت رسامته بالقوة الجبرية على ما قيل . فلما رأى ذلك اخذ للحال في اجهاد جميع قواه توصلاً الي اصلاح نقائص تربيته الاولى ففتح الله عليه بشيء كثير من العلم والحكمة حتى اصبح من اعظم احبار ذلك العصر واكبر ائمته واستمر بطريركاً مدة ٤٣ عاماً حدثت فيها عدة حوادث مهمة . واول عمل اتاه هو انه ارسل بنتينوس لنشر الدين المسيحي ببلاد الهند(١) . وكانت قد اتته رسالة من تلك البلاد النائية يلتمسون بها من بطريرك الاسكندرية (وهي اذ ذاك اشهر مدينة في العلم والفلسفة) ان يرسل اليهم معلماً للايمان

(١) ليكن معلوماً عند القارىء الكريم انه في القرن الثاني للمسيح كانت اكثر البلدان المتاخمة للهند تعرف بهذا الاسم . غير انه يظهر من عدة قرائن ان المقصود هنا بالهند هو الاقطار الهندية الحقيقية .

يعادل علمه تقواه . فعرض البطريرك ديمتريوس الامر على
بنتينوس فقبله هذا بكل رضى وذهب بنفسه لمباشرة هذا العمل
تاركاً لاكليمنضس رئاسة المدرسة اللاهوتية الى ان يعود هو اليها.
قيل وقد وجد عند الهنود نسخة من انجيل متى باللغة العبرانية كانت
موضوع اجلالهم وتعظيمهم ويقولون ان مار برثلماوس هو الذي أتى
بها الى اقطارهم الهندية ويظن مارجيروم ان بنتينوس جاء بهذه النسخة
الى الاسكندرية . هذا ولم يعرف كم مقدار الزمن الذي صرفه بنتينوس
في بلاد الهند لهذا الغرض وانما المعلوم انه حين رجوعه منها تولى رئاسة
المدرسة اللاهوتية ثانية وبقي فيها الى ان توفي سنة ١٩٤ ب . م على الارجح
اذ انه من شهادة المؤرخين قد ادرك زمن ساويرس الامبراطور وهذا
ملك من سنة ١٩٣ الى سنة ٢١١ ولكنه لم يعش بعد سنة ١٩٤ المذكورة
بدليل انه لما حدث الاضطهاد سنة ٢٠٣ كان اكليمنض حينئذ مستقلاً
برئاسة المدرسة اللاهوتية منذ بضع سنوات

ولقد هال المدرسة الوثنية ما رأته من سرعة انتشار الديانة المسيحية
لذلك العهد فدبت الغيرة في عروقها وجدد ذلك روح النشاط عندها.
فكانت خزائن مكتبة الاسكندرية في ذلك الوقت تحتوي على نسخ
من جميع مؤلفات اليونانيين والمصريين ومع ذلك كان السعي على قدم
وساق في تكثير مجلداتها وزيادة التآليف الجديدة فيها فخصص قسم من
النساخ لكتابة ما يمليه عليهم المؤلفون الاحياء واشتغل قسم آخر بنسخ

ما امكن العثور عليه من كتب المؤلفين والفلاسفة الوثنيين الذين درجوا وذلك
بقصد تسهيل انتشارها حتى يطلع الطلاب عليها . وقد بلغ عدد هؤلاء النساخ
مبلغاً عظيماً حتى اصبحوا عبارة عن جيش صغير وكانوا تبعاً لحالة وظيفتهم يقسمون
الى قسمين هما ارباب القلم السريع لكتابة الاملاء وناسخو الكتب وكان ثلاثة
من اعظم مشاهير المؤلفين الوثنيين في ذلك الحين وهم اثينيوس
ويوليوس بولوكس وكيرون مصريين مولودين بمدينة نوكراتيس.
وقد بقي من مؤلفات الاول كتاب واحد عنوانه « محادثات الفلاسفة »
وفيه وصف شائق لحالة الهيئة الاجتماعية في الاسكندرية لذلك العهد.
اما يوليوس بولوكس فلم يكن الا من اهل النقد الشفاهي ولكن
كيرون صنف تاريخاً في ملوك مصر وكهنتها فقد برمته ولما يصلنا شيء
منه لسوء الحظ . ومن الكتبة المعروفين في عهد الامبراطور كومودس
لوسيانوس مؤلف كتاب المحاورات وكان سكرتيراً او كاتب يد الوالي
الروماني حينئذ . ومن الفلاسفة الوثنيين ايضاً شلسوس الابيقوري اشتهر
برسالة له ضد الديانة المسيحية التي عمت وزاد انتشارها اكثر من الدين
الموسوي والديانة الوثنية الاصلية في مصر غير ان رسالته فقدت كغيرها
ولم نعرف من محتوياتها الا ما جاء في رد اوريجانوس عليها . وقد كتبت
في بحر تلك المدة عدة كتب اخرى في هذا الباب ولكن من الحقائق
المقررة التي لا يشوبها ادنى ريب ان الديانة المسيحية فضلاً عن اجتذابها
زمام العلماء في جميع انحاء العالم المتمدن حينئذ وانقياد ثلاثة من اعاظم

الرجال — هم ديمتريوس وبتينوس واكليمنضس — لاوامرها وخدمتها في مدينة الاسكندرية فقط فقد كانت آخذة في التغلب بسرعة غريبة على الاديان الاخرى في القطر المصري حتى انه لما كان بطريرك الاسكندرية هو الاسقف الوحيد في مصر لحد ذلك العهد رأى ديمتريوس حينئذ انه من الضروري تعيين ثلاثة اساقفة آخرين للاقاليم البعيدة عن مركز البطريركية ليتمكنوا من رعاية قطيع المؤمنين . ثم من اوضح الادلة على اضمحلال الديانة المصرية القديمة تلك المراثي المحزنة التي انشأها صاحب كتاب هرمس الاكبر اذ قال :—

« صحيح ان مصر هيكل الدنيا ومعبد الوجود ولكن لما كان من الواجب على الحكيم ان يتدبر في مصير الامور ليعرف عواقبها وما تنتهي اليه فاعلم اذاً انه سيأتي وقت يظهر فيه للمصريين كأن عبادتهم وتقواهم قد ذهبت سدى وان دياناتهم المقدسة اصبحت لغواً اذ يرجع اللاهوت من الارض الى السماء وتصبح ارض مصر مهجورة وتمسي خالية من الدين والتقى بعد ان كانت مستقر الالوهية لان البلاد متى اصبحت في قبضة الاجانب تهمل امور دينها وتسن فيها الشرائع ضد التقوى والمتقين وتفرض القصاصات على المتدينين . فتمسي هذه البلاد المقدسة ملآى بالعبادة الوثنية مشحونة بهياكل الاصنام وقبور الاموات . فواحسراتاه عليك يامصر اذ سوف لا يبقى فيك سوى ظل دياناتك فلا يؤمن بها الاعقاب والخلف وسوف لا يدوم لك سوى

تلك النقوش المحفورة على اعمدة مبانيك الشاهقة الفخيمة لتشهد باعمالك البارة التقوية . سيحتلك وآسفاه عليك قوم من الحثيين او الهنود او أية قبيلة اخرى متوحشة فيغادرك اللاهوت الى السماء ويهجرك الله والانسان مصر . هلم فاسمع ما اقوله لك ايها النهر المقدس وع ما سأنبئك به مما سيحل بك . تمتلىء مياهك وينابيعك المقدسة بالدماء حتى يفيض على شطوطك ويصير عدد الاموات الذين تبتلعهم اكثر من عدد الاحياء والذي لا يبقى حياً لا يعرف انه مصري الا بلغته فقط اذ تكون اعماله كاعمال المتوحشين » اهـ

وفي ذلك الوقت شعرت الكنيسة بضرورة الشروع في ترجمة حياة السيد المسيح الى اللغة المصرية المعروفة الآن باللغة القبطية وقد تم لها ذلك غير ان هذا الانجيل الذي كان ينسب للمصريين ضاع منذ زمان طويل حتى انه ليصعب الآن معرفة اي الاناجيل الاربعة كان هو بل قد اصبح من المرجح الآن استدلالاً من بعض شذرات وصلت الينا باللغة اليونانية ان الانجيل المذكور لم يكن ترجمة وانما هو مجموعة ادخل اليها شيء من العقائد المصرية القديمة بحيث اصبحت لا يصح اعتبارها ولذا قرر اوريجانوس وجيروم انها من الكتابات المزورة ومع ذلك فقد نشر هذا الكتاب حينئذ في البلاد بكل حرية وبدون ادنى معارضة من تلك الكنيسة المسيحية المثقفة بالعلوم والمعارف . على ان زمن السلام لم يدم طويلاً لتلك الكنيسة الفتية اذ

باغتها عاجلاً الاضطهاد الاول الذي حصل للمسيحيين في بر مصر

الفصل السابع

﴿ اوريجانوس . سنة ١٩٣ب.م ﴾

قلنا فيما سبق انه في اوائل حكم الامبراطور ساويرس كان اكليمنضس الاسكندري رئيساً للمدرسة اللاهوتية في الاسكندرية (وانما عرف بالاسكندري تمييزاً له عن سميه اكليمنضس الروماني) اما اسم هذا الرجل الشهير فهو تيطس فلافيوس اكليمنضس وفيه اشارة الى وجود بعض الصلة بالعائلة الامبراطورية غير اننا لانعرف شيئاً اكيداً عن مولده وان كانت قد غلبت عليه النسبة الى الاسكندرية . وقد ارتد عن الديانة الوثنية بعد ان صرف بضع سنوات في السياحة والدرس والمطالعة وتتلمذ بعد ذلك لبنتينوس وصار صديقه الحميم وقام مقامه مدة غيابه ببلاد الهند في الرئاسة على المدرسة اللاهوتية وعين بعد موته رئيساً لها وفي نحو ذلك الوقت ايضاً تمت رسامته كاهناً جرياً على عادتهم في ان هذه الرئاسة تكون لكاهن وانما يستثنى من ذلك اوريجانوس الذي لم يدرج في سلك الكهنوت الا بعد انفصاله عن المدرسة المذكورة

اما شهرة اكليمنضس فلم تنحصر في طول باعه في التعليم والتدريس فقط بل كان طائر الصيت جليل السمعة ايضاً بما كان له من التآليف والتصانيف المعتبرة وقد حفظ منها الى يومنا هذا خمسة مؤلفات عدا عن عدد عظيم من بقايا كتب مختلفة . اما الحقيقة العظمى التي كان هو من اول دعاتها وتفنن في اظهارها على جملة طرق واساليب هي ان الدين المسيحي وارث الماضي وترجمان المستقبل . وانه ليس بنباء غريب في تاريخ الكون او مناقض للحوادث والانباء السابقة بل هو اتمام كل اعلان او وحي او نبوة حصلت وتفسير وايضاح لكل كتاب أنزل ولكل قول او مبدأ نطقت به افواه العلماء والحكماء وارباب العقول الثاقبة سواء كانوا من اليهود أو الامم أو اليونان أو المصريين . وكان اكليمنضس لا يقتبس ادلته واستشهاداته على الدوام من العهدين القديم والجديد فقط بل من الاسفار الغير موحى بها ايضاً مثل سفر ابن شيراخ ويهوديت ومن الكتب المسيحية التي لا تعتبر من اجزاء الكتاب المقدس كرسائل برنابا ورسائل اكليمنضس الروماني وعظات ماربطرس ورسائل هرمس المسماة بالراعي وانجيل العبرانيين . وكان يعتبر الكتابين الاولين مساويين للرسائل القانونية

غير ان اوقات الهدؤ والسكينة لم تدم طويلاً في مصر بعد ان تمتعت بها البلاد سبعين عاماً وهي المدة التي انقضت منذ عصيان اليهود الى بدء ظهور الاضطهادات ضد المسيحيين وفي خلالها كانت الديار

المصرية قداصبحت برمتها تقريباً مسيحية فلما تولى الامبراطور ساويرس عرش السلطنة الرومانية وجه اهتمامه في بادىء الامر الى اخضاع الذين قاموا يزاحمونه من كل فج في انحاء الامبراطورية وكان قليل العناية الى ذلك الوقت بامر مصر وشؤونها مظهراً الميل والرضى نحو المسيحيين حتى انه كان يعين منهم من يلزم للقيام بخدمة ابنه . ثم لا ندري ما السبب الذي حمله بعد ذلك على مطاردة واضطهاد الشعب الوحيد الذي كان أميل شعوب مملكته الى الدعة والسكينة وانما الذي نعلمه انه ما لبث ان سحق شوكة الخوارج حتى اصدر امراً في سنة ٢٠٢ ب . م يحرم فيه على رعاياه الدخول في الديانة المسيحية او في الدين اليهودي في مستقبل الايام

وبعد اصدار هذا الامر قدم الامبراطور لزيارة بلاد مصر وتجول في انحائها حتى وصل مدينة طيبة جنوباً والظاهر ان ما شاهده هنالك من استفحال سلطة الدين المسيحي وتمدن المسيحيين وكثرة عديدهم جعله يوجس خيفة منهم على السلطنة الرومانية نفسها فكان انه بعد وصوله مصر ازداد الاضطهاد شدة وصرامة ولم يكف الا بعد رجوعه بمدة . وكان في مصر حينئذ وال اسمه ليتوس بذل غاية جهده في تنفيذ اوامر مولاه حتى عم الاضطهاد في انحاء القطر المصري كله الا ان الضربة القاسية اصابت الاسكندرية بنوع خاص لانها كانت تعتبر منبع الديانة المسيحية . ومع ان البطريرك ديمتريوس ظل ساكن الجاش ثابتاً في

مركزه الا انه أمر بايصاد المدرسة اللاهوتية موقتاً واعقب ذلك ان تشتت شمل التلامذة ولازموا بيوتهم وكذلك اكليمنضس اركن الى الفرار من هذه البلاد لكي يخلص نفسه من غائلة الاضطهاد . وعاش ديمتريوس مدة بعد ذلك الا انه لم يتمكن من نشر مؤلفاته اثناء حياته فنشرت بعد نياحته . اما عن المدة التي عاشها بعد الاضطهاد وماتم له فيها وكيف مات فلا يعرف شيء عنها يستحق الذكر

والذي يتصفح قائمة اسماء الشهداء من المصريين يجدها طويلة جداً ولو انها لم تصل الينا كاملة مع انه في الاضطهادات الاخرى لا تجد اكثر من واحد واثنين من اهم الشهداء . ومن الذين اشتهروا في هذا الاضطهاد فتاة اسمها بوتامينا التي تذكر كلما ذكرت غضاضة الشباب ونضارة الجمال وذاع صيتها لشدة ما قاسته من العذاب وذلك لكي يضطروها ان تنكر الديانة المسيحية وترتد عنها ولكنها بقيت متمسكة بايمانها الوطيد الى أن اودعت لهب النار مع امها مارسلا . ولم ينته عمل هذه الصبية عند موتها بل ان ما اظهرته من الشجاعة والثبات في احتمال الآلام والعذاب اثر تأثيراً عميقاً في الضابط المكلف بتنفيذ الحكم عليها فلم يلبث بعد موتها ان سلم نفسه بارادته للحكومة كمسيحي فازيلت رأسه من على جسمه وهذه احدى نتائج الايمان القويم الذي سيخلد لبوتامينا جليل الذكر وجميل الاثر . ومن اغرب ما نقله الراؤون بالاجماع ان النساء في مثل هذه الاضطهادات كن يعذبن اعذاباً اليماً

بخلاف الرجال الذين كانت تقطع رؤوسهم بدون تعذيب . وبين الرجال الذين ذاقوا كأس هذا الاضطهاد كان ليونيدس الذي شهرته ذاعت لانه كان اباً لاوريجانوس ولا يعرف عنه شيء بخلاف ذلك مع ان بعض المؤرخين قالوا انه كان اسقفاً فاذا صح ذلك فقد يحتمل انه كان من ضمن الاساقفة الذين عينهم ديمتريوس للاقاليم الا انه كان متزوجاً وله سبعة بنين اكبرهم اوريجانوس الذي كان عمره بين ١٥ و١٦ سنة عند ما ألقي القبض على ابيه وكان هذا قد اشتهر قبلاً في الاسكندرية بانه من انجب تلامذة مدرستها اللاهوتية واذكاهم كما انه تحلى ايضاً بصفات حسن السلوك ومتانة الايمان حتى اصبح يشار اليه بالبنان ولذا صار موضوع سرور والديه ومطمح انظار آله وذويه . ولما قبض على ابيه ليونيدس كان هو غائباً عن المنزل كما يظهر من قرائن الاحوال فلما آب وجد أمه واخوته الصغار في يأس وقنوط شديدين وقد يمكن للفطن ان يتصور حاسات هذه الام التعيسة التي لم تكد تنتهي من سرد هذا الخبر المحزن لاوريجانوس حتى اعلن للحال رغبته في تسليم نفسه للحكومة والالتحاق بابيه طمعاً في نوال مجد الاستشهاد ولكن دموع الشفقة والحنان التي كانت تنحدر من عينيها كالسيل المنهمر وتوسلاتها اليه ليعدل عن عزمه عاقاه برهة عما كان ينويه خصوصاً وان الشمس كانت قد مالت للمغيب ولما جن الظلام وثقل اوريجانوس بالنوم دخلت امه الاسيفة الى مخدعه خلسة وطوت كل ثيابه وابعدتها عنه فصار حينئذ كسجين

عندها لم تطلقه الا بعد ان وعدها وعداً ثابتاً بان لا يتركها الا اذا دعته الضرورة الشديدة لذلك وعليه اطاع الابن عوامل قلب والدته فارسل جواباً لابيه المسجون يرجوه فيه ان لا يتأثر لذكراهم ولا يفكر فيهم أو في مصير أمورهم بل يصرف همه في ما يؤول اليه أمره الشخصي . وثابت ان يوسيبوس جمع مجموعة تحتوي على نيف ومائة مكتوب سطرتها يد اوريجانوس في مثل هذه الظروف تشجيعاً للمضطهدين ولكن عبثت بها ايدي الضياع كغيرها من المؤلفات الثمينة التي ذهبت طعاماً للنار مع المكاتب التي حرقت في مصر وفلسطين

اما عن ليونيدس ابي اوريجانوس فآخر خبر عنه ان قد قطعت رأسه وضمت املاكه لجانب الحكومة . ولذا اصبح اوريجانوس صفر اليدين لا سنيد له وعلى عاتقه لم يولها وصبية ستة يربيهم ولكن قيض الله له سيدة من ربات الثروة واليسار — لا يعرف اسمها — بذلت كل ما في وسعها لتدافع عن المسيحيين في الوقت الذي كانوا فيه يتراوحون بين عاملي الخوف والاضطراب في الاسكندرية . ويستدل من بقاء اسم هذه السيدة في طي الكتمان مع ما كانت عليه من الشهرة الواسعة انها لم تكن مسيحية ولكنها فتحت خزائنها وبيتها ليس لاعضاء الكنيسة الارثذوكسية فقط بل وللهراطقة ايضاً سواء في مصر وانطاكيه

وظلت نار الاضطهاد مندلعة بضع سنوات في اثنائها لم يصب اوريجانوس بسوء وسبب ذلك كونه اشتهر عنه انه تحت كنف تلك

السيدة المشار اليها وذلك انه بعد استشهاد ابيه لم يبق في المكان الذي اختباء فيه طويلا بل خرج منه كما يخرج الاسد من عرينه وذهب وقلبه مملوء بالشجاعة لزيارة المسيحيين الذين ضاقت بهم رحبات السجون وكان يخدم كلاً منهم بقدر جهده منشطاً اياهم ليظلوا على ايمانهم ثابتين ولوجرعهم هذا كأس المنون . فسر البطريرك ديمتريوس من عمل هذا الشاب الباسل وشجعه في الاستمرار على الدرس والمطالعة كما انه اوجد له ايضاً تلامذة في اوقات الخطر هذه لتدريسهم وكانت تصرف لهم مرتباتهم من الاموال المخصصة لدار الفقراء والمعوزين . ومع ان هؤلاء التلامذة لم يمكنهم الالتئام في المدرسة نفسها مبدئياً الا انه لم يمض طويل زمن حتى التف كل تلامذتها حول هذا الشاب الذي صار فيما بعد من نوابغ متخرجيها . وقد يصعب على الباحث المدقق معرفة الحالة التي كان عليها المصريون اثناء هذه الاضطهادات ولكن يظهر ان احوالهم لم تكن على وتيرة واحدة بل كانت تختلف باختلاف الظروف ففي بعض الاوقات كان المسيحيون يقشعرون ويتشنجون عند ما يلقى القبض فجأة على الرجال والنساء منهم ويؤخذون على غرة من الاماكن التي يقطنونها وكثيرون منهم يعذبون عذاباً اليماً ثم يتجرعون كاس الحمام في لحظة من الزمن وبعضهم يتركون في السجون حتى يصيبهم الضنى والنحول وكانوا احياناً يعاملون بمنتهى القسوة والصرامة كما يشاء المكلفون بحراستهم واحياناً يرفق بهم قليلاً فيسمح لهم بمقابلة اصدقائهم والتكلم معهم بما يخفف

السجن ويزيل الهم نوعاً بيد ان مجرى الاعمال الاعتيادية كالبيع والشراء والرياضة وغيرها بقيت على ما هي عليه في الاسكندرية وكان المسيحيون يخطرون ذهاباً وجيئة بين جيرانهم الوثنيين واليهود وهم غير عارفين متى يجيء دورهم او ما الذي يحل بالمسجونين منهم . ولم يكونوا يستطيعون التفوه بخبر الاهماً في الآذان فكان الواحد منهم يقول لصاحبه « هل سمعت ان فلاناً قبض عليه وسجن وقيل انه لا يعود يفلت » وكقول بعضهم « لقد اصبنا بخسائر لا تقدر فما العمل » ولم يزل الامر كذلك حتى اختفى خبر الكثيرين واصبحت السجون مكتظة بهم حتى اذا لم يبق فيها مكان أعدم من فيها لايجاد محل لغيرهم . كل هذا والبطريرك الفلاح الشيخ ديمتريوس والشاب المهذب العالم اوريجانوس وكثيرون غيرهما من اولي الشجاعة والايمان ظلوا يؤدون ما يطلب منهم نحو الآخرين بكل ثبات وسكون جاش وكانوا ينتقلون من مكان الى آخر دون ان يجسر احد ويمد يده اليهم بسوء مع انهم كانوا محفوفين باخطار جمة . ولم يك طويلاً حتى القى القبض على خمسة من التلامذة الذين كانوا يتلقون الدروس اللاهوتية على اوريجانوس وبعد ان قضوا اياماً مرة ذاقوا فيها من الاهانة القاسية والسجن الاليم ماتنوء تحته اجسام الرجال تجرعوا غصص المنون لانهم رفضوا ان ينكروا ايمانهم بانفة وشهامة . وكان بين هؤلاء الشبان الخمسة بلوطارخوس وهو شقيق لتلميذ آخر اسمه هراكلاس الذي فر من الذين امسكوه بطريقة

وقدر له ان يعيش حتى يكون رئيساً للمدرسة اللاهوتية ثم بطريركاً للاسكندرية . وكان اوريجانوس مع بلوطارخوس عند ما قبضوا عليه لانه كان صديقه فلم يتركه برهة بل ظل مرافقاً له الى آخر لحظة من حياته فلما قدم بلوطارخوس للاعدام اندفع اوريجانوس كالسهم يخترق الجمع المزدحم وتقدم نحو صديقه بلوطارخوس ليقبله قبلة الوداع الاخيرة وهو بين السيف والنطع بينما كان الرعاع المتجمهرون هناك يضجون ويصخبون طالبين القبض عليه ايضاً ورجمه بالحجارة ولكنه تمكن من الفرار فلم يقفوا له على أثر . اما باقي هؤلاء التلامذة الخمسة فهم ساويرس وقد أحرق بالنار وهيراكليدس وهرون وقد قطعت رأساهما وآخر اسمه ساويرس ذاق العذب الوانا قبل ان يريحه السيف منه

وبعد مضى سنتين على هذه الصفة اضطر البطريرك ديمتريوس ان يعين اوريجانوس نهائياً رئيساً للمدرسة اللاهوتية التي كانت لا تزال ملتئمة تحت رئاسته منذما بدأ الاضطهاد .فهذا التعيين جعل اوريجانوس مبغوضاً جداً من عامة الوثنيين الذين كانوا ينظرون اليه شذراً بعين ملؤها الكره والغيظ فاحس ديمتريوس بذلك وشعر بمقدار الخطر الذي يحيق باوريجانوس ولذا وضع حراسة قوية لحمايته من الاذى الذي كان ينتظر ان يصيبه من الاوباش الذين كانوا يقصدون القبض عليه في احد الشوارع لا ان تقبض عليه الحكومة بالطريقة القانونية . قال يوسيبيوس يصف الحالة التي كان فيها اوريجانوس « ان عوامل

الاضطهاد كانت تزداد ضده كل يوم وحنق القوم عليه اصبح شديداً حتى ان اهالي الاسكندرية عن بكرة ابيهم لم يستطيعوا احتماله ولا الصبر على انتقاله من منزل الى آخر وجولانه في كل ناحية مرشداً ومشجعاً الجم الغفير الذين هداهم الى الايمان الصحيح والدين القويم » . ومن الغريب ان هؤلاء السذلة الرعاع بداء فيهم شعور الاحترام لهذا الشاب الهمام الذي سحرهم بأعماله بينما كان يستخف بهم كلهم ليس ازدراء وسخرية بل بفطنة زائدة وطبع دمث وخلق سلس . قال ابيفانيوس انه في يوم ما امسك اولئك الزعانف اوريجانوس بينما كان سائراً في الطريق وحملوه بين ضجيج القوم الى هيكل سيرابيس الشاهق واضطروه اضطراراً بان يضع القلنسوة (١) على رأسه والبسوه الحلة البيضاء (التونية) التي يلبسها كاهن هيكل سيرابيس ومن ثم اخرجوه خارج الهيكل واصعدوه على قمة الطيارة الكبرى التي في اعلى السلم وحينئذ امروه ان يوزع سعف النخل على عبدة الاوثان الذين كانوا مجتمعين كالنحل وهم يسخرون به ويصفقون له بالاكف من الاسف .فلم يتأخر اوريجانوس ان مد يده واخذ اغصان النخل وقدمها للشعب المتجمهر وصرخ بصوت كالرعد قائلا « هلموا خذوا هذه الاغصان . لكن ليس برسم الاوثان . بل باسم الرب يسوع المسيح خالق الانسان » — حقاً ان هذا المنظر لمن اعظم المناظر سروراً للعواطف الحية في مثل هاتيك الايام المظلمة

(١) هذه اشارة كان يلبسها الكهنة الوثنيون في تلك الايام وليست من خصائص المسيحيين

المضطربة — منظر ترى فيه ذلك الهيكل العظيم يناطح السحاب وحوله من الاسفل ردهة ملآنة باسافل القوم من كل جنس وطبقة وهم يضحكون ويصيحون بصوت كهزيم البرق كما تشاهد امثالهم في وقتنا الحاضر عند الاحتفال (بالمحمل) — ترى ايضاً طيارة السلم الشامخة مزدحمة بالوثنيين المترفضين يحملون الاغصان المقدسة وفي وسطهم صورة ذلك الشاب الباسل كانها القمر في ليلة حالكة وهناك ضوء الشمس يسطع على حلته الناصعة البياض فينعكس على تلك الاعين الشريرة فيبهرها كما كان ينعكس فضله على افئدتهم فيسحرها واوريجانوس واقف كالاسد يبتسم عن ثغر نقي وبيده سعف النخل يشير به على هذا الشعب لينبههم الى الدعوة التي يدعوهم اليها وهي عبادة المسيح بدل سيرابيس . وكان صوته الجهوري يرن في الآذان وسكون جاشه وثباته حيرا الاذهان

اما اوريجانوس هذا فكان علامة دهره في حقائق الديانة المسيحية عند ما تقرر تعيينه رئيساً للمدرسة اللاهوتية كما انه كان متضلعاً في العلوم والمعارف التي شب على درسها واستيعابها . والذي اوصله الى هذه الدرجة من المعرفة والعلم هو انه قبل بدآئة هذا الاضطهاد درس كثيراً هو وجماعة من الشبان المسيحيين في المدرسة اللاهوتية درساً مدققاً ثم في المدرسة الوثنية التي كان يديرها امونيوس ساكوس من اشهر علماء الاسكندرية وكبار اساتذتها . قال يوسيبوس في هذا الصدد « ولما رأى اوريجانوس ان التلامذة الذين عهد اليه البطريرك

دعتريوس امر تعليمهم قد اخذوا يزدادون ويتكاثرون ارتأى ان استمراره في درس العلوم الطبيعية والدروس الادبية لا يتلائم مع تدريس العلوم الدينية للطلبة الذين أسند اليه تعليمهم ولذا لم يلبث ان ترك مدرسة الفلسفة الوثنية السابقة الذكر واعتبرها عديمة الجدوى وان دروسها سحابة تحجب الانوار الساطعة التي يأخذها من علم اللاهوت، ولكنه لم يتبع خطة الافراط والتفريط مرة واحدة بل بقي يطالع ما سطره الاقدمون من العلوم المفيدة بجد متواصل وفي هذه المدة اخذ يبيع كل كتبه المدرسية القديمة وجميع النسخ التي كتبها بيده من مكتبة الاسكندرية وعليه اتفق مع رجل باعه هذه الكتب الوثنية برمتها على ان يدفع له اربع بارات[1] يومياً يقتات بها في حياته . فهذا الفكر كان مبداء لخطة سار عليها اوريجانوس في ما بعد قاعدتها الغيرة الروحية التي تسوق الى انكار الذات وتكريس النفس وهي خطة اتبعها اكثر المصريين المتدينين في هاتيك الايام وتطرفوا فيها حتى حرموا كل بحث وتنقيب في الامور العالمية . ولما كان اوريجانوس قد اشتهر بالحذق والتواضع ورقة الجانب فلم يصب بتلك المصيبة التي وقع فيها اكثر الاتقياء من المصريين وهي الالتجاء الى الصحارى والقفار والابتعاد عن العالم بحجة التبتل والزهد أو هو موت الاحياء بل ان ذكاءه ومواهبه السامية جعلته مفيداً اكثر باختلاطه مع الآخرين الذين هم في حاجة اليه اكثر من

(١) كانت البارة عبارة عن قطعة نحاسية تساوي مليمين تقريبا

احتياج الدير له الا انه لم يبق كامل القوى بمعنى انه اسلم نفسه لعوامل الضعف وقهر الجسد حتى شعر بخطائه وندم على ما فعله من اذلال جسمه وود لو امكنه استرجاع قواه ولكن لم يفد الندم ولم ينفع الاسف فظل ضعيفاً منهوكاً . والذي يراجع تاريخه يعجب جداً من الطريقة التي اتبعها كما انه يعرف السبب الذي اضعفه واضناه في انه اجهد نفسه ليتمم كل فرائض العهد الجديد واوامره حرفياً حتى امتنع من اقتناء ثوبين معاً في وقت واحد وكان يسير حافياً شتاء وصيفاً وكان يأكل الخبز ويشرب الماء فقط ويأدم ببقول خضراء غير مطبوخة اسوة بافقر فلاح مصري وكف عن درس الدروس الادبية والعلمية التي كانت اعظم ما تسر به نفسه ولم يزد حرفاً واحداً على الاصل في ترجمته لسفر من الاسفار المقدسة — كل هذا ولم يكن اوريجانوس الا شاباً في عنفوان الصبا وريعان العمر تقاومه الشهوة الطبيعية فكان يتغلب عليها بعد عناء يعرفه من يقاوم ارادته البشرية حتى انه لما كانت تضطره واجباته في ايام الاضطهاد الى الدخول وسط العائلات وارشادها لطريق السداد ومناقشة الجنسين النشيط واللطيف ساعات متوالية كان يتألم ويرتعب خوفاً من الوقوع في تجربة وقصد ان يصد نفسه بعزم شديد عن اي عمل يوجب الخجل والارتياب متبعاً في ذلك نص ما ورد في الاصحاح التاسع عشر من انجيل متى

هذا ولو ذكر القارىء الكريم حالة البطريرك ديمتريوس عند ما

سمي بطريركاً وكيف انه جاء ليصلي لله لاجل زوجته ويقدم الكنيسته تقدمة هي محصول كرمه وهو حينئذ رجل فلاح أمي وقد اختير لهذا المنصب الخطير — لو ذكر ذلك وعرف مقدار حبه لاوريجانوس ظهيره ونصيره لادرك ما استحوذ على افكار هذا البطريرك من الحزن والقلق عند ما رأى هذا الشاب الغض قد سقط في وهدة الضعف والخجل لسبب زهده وتقشفه خصوصاً لاغراقه وتعمقه في مبدأ تكريس نفسه وانكار ذاته ولانه لم يتبه كمبداء شخصي اختطه لنفسه بل قصد منه ان ينزع من فكر البطريرك ترشيحه لرتبة الكهنوتية كما ترشح اكليمنضس وبنتينوس من قبله . ولم يكن لحد هذا الزمن قد سن قانون رسمي يعمل به في مسألة الرتب الكهنوتية الا ان رأي الشعب العام كان له القول الفصل في هذا الامر لقوته وتنوره ولذا كان كل من وقع عليه الاختيار سيم للحال لاي رتبه كيفما كانت درجته . زد على ذلك ان عمل اوريجانوس هذا خالف كل المخالفة قانون المملكة المدني التي تعتبره كقاتل نفس كما انه تقرر في المجمع النيقاوي ان كل كاهن يعمل بنفسه هذا العمل اي الزهد الزائد والتنسك المفرط لحد الاضرار بنفسه ، يقطع من الكهنوت» الا ان غلطة اوريجانوس هذه تغفر له لانه اعترف بها اعتراف المقر بذنبه الشاعر بثقل خطيته كما ورد ذلك في هامش رسالته التي سبقت الاشارة اليها

وقد استمر الاضطهاد السالف ذكره سبع سنوات لم يصب مسيحيو

رومية ضرر يذكر خصوصاً الذين كانوا منهم في خدمة البلاط الملوكي ولعل سبب ذلك عدم وجود عصبية قوية لهم توجد التاثير المطلوب مع كثرة عديدهم واهمية مراكزهم ولذا لم يخش الامبراطور شرهم كما كان يخشى شر المصريين الذين كانوا في درجة عظيمة من الثروة والعلم عارفين تمام المعرفة بما سلب منهم من الشهرة السياسية والادبية ولا يعوزهم للايقاع بمملكته سوى رباط متين يربطهم معاً كأن يكون دين واحد كالدين المسيحي ولذا كان القصد محو آثاره في قرطجنة وانطاكية وفي باقي الاقاليم المصرية اما رومية عاصمة المملكة التي كانت تحت حمى الجيش والحكومة فلم يكونوا يهتمون بامره كثيراً. وقد يغلب على الظن ان اوريجانوس زار كنيسة رومية ربيبة الكنيسة المصرية وذلك اثناء مدة هذا الاضطهاد. وبعد عودته او ربما قبل سفره كان قد اشترك معه هراكلاس زميله في التلمذة في تدبير مهام المدرسة اللاهوتية بينما كان هذا قد سيم كاهناً . وفي هذا الوقت ايضاً انكب اوريجانوس على تعلم اللغة العبرانية وذلك ليؤهل نفسه الى ترجمة الكتب المقدسة الى ست لغات وهو عمل يعد من اهم الاعمال الخطيرة التي عملها اوريجانوس في حياته ولو ان هذه الترجمة لم تنشر الا بعد وفاته بسنين قليلة . وكان حجم هذه التوراة المترجمة يساوي ستة اضعاف حجم التوراة الاصلية مرتبة في جداول متوازية في الاول منها النص العبراني

الاصلي وفي الثاني النص اليوناني وفي الثالث ترجمة اكويلا [1] وفي الرابع ترجمة سيماخوس وهو مسيحي عاش في مدة مرقس اوريليوس او ساويرس كما يظن البعض وكان مسكنه فلسطين حيثما يحتمل انه انم هذه الترجمة المنسوبة اليه وقد يمكن ان اوريجانوس كان عارفاً بترجمة سيماخوس قبل ان يعثر على النسخة التي قال بلاديوس ان اوريجانوس كتب عليها بخط يده هذه العبارة « قد وجدت هذه النسخة في بيت يوليانا العذراء في قيصرية بينما كنت مختبئاً هناك وقد قالت لي يوليانا انها اخذتها من يد سيماخوس مترجم اليهود » . اما الجدول الخامس فكان يحتوي على الترجمة المعروفة بالترجمة السبعينية والسادس على ترجمة ثيودوشن الافسسي كتبها نحو سنة ١٨٠ ب.م وقد قال عنه ايرينوس انه كان وثنياً واعتنق الديانة المسيحية ولم يترجم سوى العهد القديم فقط ويحتمل انه اهمل مراثي ارميا الا ان هذه الترجمة قورنت مع نسخ عديدة متنوعة مكتوبة بخط اليد قال عنها يوسيبيوس ان اوريجانوس بحث عنها ونقب في مخابئ قديمة حتى وجدها مطمورة فاخرجها بعد ان مرت عليها ايام كثيرة . ولما لم يهتد اوريجانوس الى معرفة اسم المؤلف لهذه النسخ نوه في حاشية منها بانه وجدها في نيكوبوليس بالقرب من اكتيوم كما انه وجد هذه الترجمة الاخيرة في مكان مثل هذا . اما ترجمة المزامير في هذه التوراة فكانت تحتوي على الاربعة جداول الاولى ثم اضيف اليها ثلاثة ايضاً

(١) هو من بنطس كان يشتغل في اعمال متنوعة في ايام ادريانوس وقد اعتنق الديانة اليهودية او الديانة المسيحية على قول البعض

فاصبحت المزامير مترجمة الى سبع لغات واحد هذة الجداول الثلاثة قيل انه اكتشف باريحا في مرجل وذلك في مدة كاراكلا ابن ساويرس

فهذه الترجمة الشهيرة التي كتبها اوريجانوس قد عبثت بها ايدي الضياع كما لعبت في غيرها من المؤلفات الثمينة ولم يبق لها اثر ولكن الجدول المأخوذ من الترجمة السبعينية كان قد نسخ صورة منه من الاصل الذي كان محفوظاً في قيصرية في ايام يوسيبيوس وبامفيليوس وعرضت هذه النسخة ليقراءها من شاء . وفي القرن السابع قام بولس اسقف بلاّ وترجم نسخة الترجمة السبعينية الى اللغة السريانية وظلت نسخة من هذه الترجمة محفوظة في ديرفي وادي النطرون اكثر من الف سنة وهي الآن موجودة في المتحف البريطاني ولكنها غير كاملة

هنا اخذ اوريجانوس يشعر بخطائه الذى ارتكبه في قمع جسده وعقله وهو شعور ازداد معه عندما اخذ على عاتقه اتمام العمل المار ذكره الذي يحتاج لعقل سليم في جسم غير سقيم ولذا عول على اصلاح غلطته هذه بقدر استطاعته ولكن لم تعد تجدي الوسائط نفعاً ولم يكن في طوقه استرجاع نضارة شبابه التي اضاعها بنزقه وتهوره ولكنه افرغ قواه في اعادة غضاضة عقله ان لم يقدر على جسمه وذلك بمعاودته درس المؤلفات العلمية والادبية . فلما عمل هذا اصبح عرضة للوم وتقريع الجهلاء وسخيفي العقول ولذا اضطر ان يبريء نفسه ويناضل عن مبادئه وهاك شذرة من رسالة له في هذا المعنى قال فيها : —

«لما كنت قد كرست نفسي لخدمة كلمة الخلاص وكان قد ذاع صيتي في الآفاق نظراً لبراعتي واقتداري وكثيراً ما كنت معضداً للهراطقة واهل البدع الذين يجيئون لزيارتي والبحث معي وكنت مرموقاً بجماعة من المغرمين بالعلوم اليونانية خصوصاً المتعمقين في الفلسفة — قصدت ان افحص افكار الهراطقة وامتحن تآليف الفلاسفة الذين أحياناً يتعمقون بحقائق مهمة وقد اتبعت في هذا خطوات بنتينوس الذي افاد الكثيرين قبل ان اوجد انا ولم تكن معارفه قاصرة على هـذا الحد كما انني تفوت آثار هراكلاس الذي كان عضواً في مجمع الاسكندرية وقد علمت انه واظب مدة خمس سنوات يحضر عند معلم الفلسفة قبل ان ابتدىء انا في استيعاب هذه العلوم»

وقد كتب غريغوري ثومترغس وهو من اشهر تلامذة اوريجانوس كتاباً على نسق ما كتبه استاذه وهذا نصه :

«لم يحرم علينا البحث في اي موضوع ولا استعصى علينا علم ولا خفي عنا أمر وقد أبيح لنا الوقوف على سر كل تعليم سواء كان للمتوحشين او اليونان ومعرفة غوامض الامور روحية وجسدية الهية او بشرية . وقد استقصينا بحرية كل انواع العلوم ومتنا انفسنا بكل المسرات الجائزة التي تميل لها النفس الشريفة»

ولم يكتف اوريجانوس بترجمة التوراة الى ست لغات بل في الوقت نفسه وضع ايضاً شرحاً طويلا لاسفار التوراة ضاع اكثره من زمن مديد مع انه كان متداولاً في ايام يوسيبيوس . فهذا هو اوريجانوس الذي يعد بين الطبقة العليا من علماء المسيحيين بالاسكندرية في الاعصر الاولى حتى لقد ذاع صيته وطبقت شهرته الافاق فكان يأتي اليه الناس افواجاً من كل فج عميق وترسل الامم في طلبه ليرشدها الى طريق الخلاص خصوصاً لما عرف عنه من الفرح في وقت الشدائد والابتهاج

بالعذاب والآلام وكان من أهم اعماله ثلاث ارساليات أنفذت الى بلاد العرب كل على حدتها وقد ذكرها يوسيبيوس في تاريخه . ولا بد ان يتذكر القارىء ان بلاد العرب كانت في ذلك العهد اشبه ببلاد الهند حينئذ التي مر بك وصفها في انها كانت عبارة عن بلاد واسعة الارجاء لا يعرف عنها شيء . اما مدينة البصرة التي كانت بمثابة واحة في صحراء سورية وهي تسمى الآن حوران على مسيرة اربعة ايام شمالي دمشق

وأول ارسالية من الارساليات الثلاث التي انفذها اوريجانوس كانت بين سنة ٢٠٣ — ٢١٥ ب . م وسبب ارسالها هو ان حاكم بلاد العرب أرسل جوابات الى والي مصر وبطريرك الاسكندرية يطلب فيها ارسال الرجل المسمى اوريجانوس بدون تأخير وذلك لكي يشرح له تعاليم الديانة المسيحية ويرشده الى طريق الخلاص . وقد يبعد على الظن كثيراً ان حاكماً يرسل لحاكم آخر ارسالية مثل هذه لنشر الدين المسيحي بينما كان الاضطهاد مستمراً والغرض منه ابادة هذا الدين واضمحلاله . وكما ان الهدو لم يدم طويلاً للمسيحيين كذلك الاضطهاد ايضاً كف سنة ٢١١ ب . م عند موت ساويرس فبدأ مسيحيو مصر يذوقون لذة الراحة خصوصاً عند جلوس ابنه كاراكلا الذي كان ميالاً للمسيحيين لما شب عليه من العلم والتهذيب وهذا الذي مكن اوريجانوس من انفاذ أول ارسالية لبلاد العرب بين سنتي ٢١٢ و٢١٣ ب . م ولما سار اوريجانوس قاصداً بلاد العرب وكل ادارة المدرسة اللاهوتية لعهدة

هراكلاس ولم تطل غيبته كثيراً عن مصر وذلك لانه عين شخصاً اسمه بيرلوس اسقفاً للبصرة وكان البطريرك ديمتريوس قد سامه رئيساً لهذه الارسالية . اما عدم بقاء اوريجانوس زمناً طويلا في بلاد العرب فهو لضيق وقته وكثرة اشغاله فضلاً عن ان البطريرك ديمتريوس لم يسند اليه مركز الرئاسة على هذه الارسالية وهي وظيفة لا تعطى الا للكهنة واوريجانوس لم يكن منهم مع ما اشتهر به من العلم والفضل

اما الامبراطور كاراكلا فكان رجلا مستشرقاً وهو وصف ينطبق عليه تماماً ذلك لان اباه كان خليطاً من اوروبي وافريقية وامه كانت امرأة سورية الجنس وكأن الخلط والتباين في اصله اوجدا خلطاً وتبايناً في صفاته وطباعه التي كانت تختلف من مكر وخداع الى لطف وملاينة الى همجية وقسوة حتى ان الصفة الاخيرة هذه تغلبت عليه مرة فقتل اخاه على مرآى من امه وذلك بعد ان رقيا عرش المملكة بسنة واحدة وهذا ليس بغريب في الطبع البشري ان يتغلب شيطان الشر على ملاك الخير ما دام الانسان مستسلماً لعوامل ارادته الفاسدة . وقد خطر على بال كاراكلا ان يعمل على زيادة دخله فغير النظام الذي كان يسير عليه مسيحيو مصر فيما يختص بتأدية الجزية وابدله بنظام آخر ضرب فيه ضريبة على نزلاء الرومانيين الذين طال زمن استيطانهم لمصر ولكنه أعفى منها المهاجرين والارقاء وضاعفها على المصريين باجمعهم دون ان يستثنى منهم احداً وعليه ضجر هؤلاء من هذا الظلم الجديد وشاركهم

في تذمرهم جماعة القرطجنيين والسوريين فعقدوا الخناصر على تغيير هذه الحال والمطالبة بالعدل واتفقوا على رأي يسيرون عليه . وكان بين القوانين المعمول بها حينئذ قانون يقضي على المسيحي الذي يعرف عنه انه قاوم الحكومة في امر ما بالصلب او بطرحه للوحوش الضارية فتمزقه اربا هذا ان لم يكن عبداً ذليلاً فيكتفي بعبوديته وذله . وكان النزيل الروماني عرضة لمثل هذه العذابات المفروضة على المسيحي المصري اذا قاوم الحكومة الا ان نهايتهما لم تكن واحدة فان الاول يقتصر قصاصه على العذاب فقط ثم يعفى عنه اما الثاني فبعد هذا العذاب يذوق كاس الحمام بحد الحسام

وقد مر بك ان اهالي الاسكندرية سواء كانوا مسيحيين او وثنيين كانوا يزدرون بحكامهم ولا يهتمون بالامبراطرة مطلقاً حتى كثيراً ما لقبوهم بالقاب الهزء والسخرية واطلقوا على القياصرة انفسهم اسماء مستعارة تضحك الثكلى ونال كاراكلا حظاً وفيراً من هذا السخر حتى تضايق جداً وود لو قدر ان يقابلهم بالاحتقار وعدم الاهتمام الا ان هذا الازدراء اثر كثيراً في احساساته فبات يرقب فرصة فيها لينتقم من الذين حقروه واهانوه . وحدث في سنة ٢١٥ ب . م بينما كان كاراكلا في سورية اعلن رغبته في زيارة الاسكندرية ولم يكد يبلغ هذا الخبر مسامع سكانها حتى قاموا يستعدون لمقابلته باحتفال عظيم وذلك اقراراً بفضله عليهم بمنع الاضطهاد عنهم وكأنهم تناسوا ايضاً قوارص الكلام

الذي رموه به عند قتله اخيه وارتكابه لجرائم اخرى ثم قصدوا من الجهة الاخرى اقامة احتفالات مضى عليهم وقت طويل وهم محرومون منها وعليه تقاطرت الجموع الى الاسكندرية حتى ضاقت بهم على سعتها وذلك لكي يشهدوا ذلك العيد العظيم ويحيوا الامبراطور عند مجيئه بنداء التكريم

وكان كراكلا يستصحب معه ثلثين من العساكر احداهما من مكدونية والثانية من اسبرطه كحرس له فقصد عند زيارته مصر ان يشرف الاسكندرية وهي اشهر مدينة في هذه الديار بان يتخذ له منها كتيبة من الجنود ضمن حرسه الخصوصي فسر الاسكندريون بهذه المنة سروراً كبيراً وقابلوا هذا الفكر بمزيد الفرح والابتهاج . فلما جاء اليوم المعين لاتمام هذا الغرض وفد الوف من الشبان واجتمعوا في ردهة واسعة خارج المدينة واصطفوا فيها صفوفاً حتى يسهل على الامبراطور افتقادهم وانتخاب من يليق منهم قبل ان ينتظموا في سلك الجندية ويحملوا الاسلحة . وكان لذلك يوم مشهوداً ازدحم فيه اقارب اولئك الفتيان واصحابهم فرحين متهللين وهم وقوف في ضوء شمس سطع نورها تحت قبة زرقاء رق أديمها وغرضهم من ذلك مشاهدة هذا الاستعراض وتهنئة من يحوز الفخر والشرف بانضمامه للحرس الامبراطوري . وكان الجيش المنظم الذي جاء مع الامبراطور مصطفاً على شكل دائرة حول ساحة الاستعراض وكان الامبراطور مع حرسه واركان حربه يتفقد

صفوف المتطوعين والشعب يقابله باصوات الاستحسان وعبارات الدعاء والاكرام . ولم يكن كلمح البصر حتى خرج الامبراطور خارج الصفوف وأشار اشارة اتفق عليها مع اولئك العساكر الادنياء الخالين من الرحمة والحنان الذين كانوا عالمين قبلاً بان مولاهم سيعهد اليهم اليوم اتمام مذبحة هائلة تشيب لها النواصي وعليه جردو احرابهم وسيوفهم وانقضوا على هذا الجمع الاعزل من كل سلاح كما ينقض الباشق على عصفور صغير وأعملوا فيهم مرهفات الصوارم وزرق الانياب حتى انقلبت اصوات الفرح والحان الموسيقى الى صراخ الحنق والقنوط وعويل الحزن والموت وذبح اولئك الشبان ذبحاً وجزت رؤوس اقاربهم وأصحابهم جزاً وسال الدم يجري كالغدران والذين لم يتنابهم السيف طرحوا في لجج البحر وصاروا طعاماً للاسماك . قيل ان ماء النيل الذي يصب في البحر المتوسط امتزج بدماء المذبوحين امتزاجاً حتى صار احمر كالبقم ولم ينج من كل ذلك الجمع الهائل سوى رجل او رجلين فرا هاربين ولجأا الى المدينة والقيا الرعب والحزن في قلوب أهليها بهذه الاخبار التي يفطر منها الفؤاد وبات القوم في خوف وجزع مما ينتظر ان يحل بهم فيما بعد وظن الكثيرون ان هذا العمل كان كمقدمة فقط لاضطهاد يهول لا يبقى ولا يذر وظلوا يترقبون هجوم الجيوش على الاسكندرية فتدمرها وبنوا ظنهم هذا على امر اصدره الامبراطور بارفاض الجمعيات العلمية التي كان يعتبرها كسد يحول دون تنفيذ انتقامه . ولما رسخ هذا الفكر في اذهان

الناس اسرعوا بالفرار من المدينة لا يلوون على شيء . وقد ذكر يوسيبيوس هذه الحادثة بقوله انها حرب عوان انتشبت في المدينة ولكنه لم يذكر اسم كار اكلا ولا علاقته بهذه الحرب وقد أشار ايضاً الى هروب الناس من المدينة وذكر ان اوريجانوس كان ضمن الفارين ذلك لانه ادرك ان بقاءه في مصر خطر على حياته فجاء الى فلسطين وأقام في قيصرية . اما البطريرك ديمتريوس وهرا كلاس فظلا في الاسكندرية وبواسطتهما ظهر للمسيحيين ان غضب الامبراطور لم يكن موجهاً لهم خاصة بل لجميع السكان على اختلاف اديانهم وان انتقامه لم ينته عند هذا الحد بعد بل بداء ينتقم من الاسكندرية انتقاماً ادبياً بان أصدر أوامره بابطال الالعاب العمومية وعدم صرف مرتبات من الخزينة للوطنيين وشاد معاقل وحصوناً بين المدينة الاصلية وبين الحي الذي فيه قصر الامبراطرة المدعو بروخيوم وذلك لكي يكون في مأمن من الثورات والعصيان . ولم يكتف بذلك بل سعى في احياء رميم الديانة المصرية القديمة وبنى هيكلاً للآله ايزيس في رومية . وقد قصر مدة اقامته في الاسكندرية بعد ذلك فلم يمكث بها طويلاً بل قفل راجعاً الى رومية حيث هجم عليه مكرينوس واورده حتفه بعد هذه الحادثة المريعة بسنتين «ولا ظالم الاويبلى باظلم»

اما اوريجانوس الذي عرفت انه هرب لفلسطين وأقام بقيصرية فقد قوبل فيها بمزيد الحفاوة والاكرام كما يليق بفاضل مثله وعلت

منزلته في اعين علماء هاتيك البلاد حتى عهدوا اليه القاء دروس ادبية علمية في بحر الاسبوع ثم طلب منه اسكندر اسقف اورشليم — وهو رفيق اوريجانوس في التلمذة — وثيوسيستوس اسقف قيصرية ان يعظ جهاراً في كنائسهما . فلما بلغ هذا الخبر مسامع ديمتريوس بطريرك الاسكندرية كتب يعترض على الاسقفين المذكورين سماحهما لرجل علماني الوعظ في الكنائس جهاراً وهو عمل لا يجوز الا للكهنة فقط ويحرم على من عداهم حتى اوريجانوس نفسه . فلم يسكت الاسقفان على هذا الاعتراض بل ردا عليه ولكن بلهجة معتدله وكلام يدل على مقدار احترامهما لهذا البطريرك واستشهدا على عملهما هذا بما اجراه السلف الصالح الا ان البطريرك ديمتريوس الشديد العارضة لم يقتنع بهذا الرد بل عاد فانفذ شمامسة من الكنيسة المصرية يحملون رسائل لاوريجانوس نفسه يحرضه فيها على الكف عن هذه الاعمال التي تنافي قانون الكنيسة وطلب اليه ان يعود الى الاسكندرية ليمارس عمله فيها لان المياه عادت الي مجاريها واصبحت الاحوال في هدو وسكينة. فبناء على ما جبل عليه اوريجانوس من الطاعة والتواضع وهي اعظم حلية تحلى بها رضخ لاشارة رئيسه وعاد لاسكندرية على جناح السرعة

اما مكرينوس الذي اغال حياة كاراكلا فلم يملك سوى شهرين فقط سمى نفسه فيهما والي مصر وعين صديقاً له اسمه باسيليانوس مع آخر اسمه مرقس سكندوس لينوبا عنه في حكم مصر. ومرقس سكندوس

هذا هو اول عضو في مجلس النواب ناب عن والٍ في مصر

ولم يكن لكاراكلا عقب يخلفه على سرير المملكة الا ان خالته يولياموسا وهي فينيقية الاصل كان لها بنتان ولدت كل منهما ولداً. فهؤلاء النساء الثلاث وهن يولياموسا ويولياسوميا ويولياماميا كن موجودات في البلاط الروماني اثناء وجود كاراكلا في عالم الوجود ولكن بعد موته اضطررن ان يلجأن الي سوريا حيث دبرن مكيدة محبوكة الاطراف قصدن بها استرداد السلطة التي سلبها مكرينوس قاتل كاراكلا من ايديهن وعليه اشاعت يولياسوميا ان كاراكلا هو الآب الشرعي لابنها الذي كان له ستة اسماء معاً ولكنه كان كغيره من سالفيه يعرف باسم واحد هو لقب يلقب به وهو هليوجابلوس نسبة الى ديانته السورية التي يشتق هذا اللقب منها. وقد ساعد على اتمام هذه الحيلة ان الجيوش الرومانية التي كانت معسكرة في سوريا بايعت هذا الصبي الامبراطورية واقتبلوه مع امه وجدته بكل ترحاب واكرام وانزلوهم في معسكرهم منزلاً رحيباً فبدأت حينئذ حرب سجال بين انصار مكرينوس وهليوجابلوس كان الفوز فيها لهذا الذي استولى على الملك واصبحت السلطة في يده . اما الحالة في الاسكندرية فكانت على غير ما يرام اذ ظل السلام مفقوداً منها بما كان يثيره اعداء المسيحيين من الخصام والعراك حتى في وسط شوارع المدينة الى ان قتل مكرينوس سكندوس كما مر وفر والي مصر الذي كان نائباً عنه تاركاً الدار تنعي من بناها

وحكم هليوجابلوس اربع سنوات كانت كلها شؤماً ونحساً على المملكة الرومانية خاصة اما مصر فقد تمتعت بشيء من السلم والامن خصوصاً في الثلاث سنوات الاخيرة من حكمه واستفاد اوريجانوس كثيراً من هذه السكينة اذ اخذ يمارس التدريس والتأليف بعزيمة ماضية وجد متواصل وكذلك البطريرك ديمتريوس الذي لم يبرح مركزه يوماً واحداً حتى في اشد ايام الاضطراب بداء يزاول اعمال الكنيسة بهمة عليا ونشاط غريب . واستفاد الوثنيون ايضاً من هذا السلام اذ اخذت مدرستهم الجديد التي اسسها امونيوس سكاس [1] لتدريس الفلسفة اليونانية تنمو وتترعرع . وفي هذه المدة ايضاً تعرف اوريجانوس برجل من ارباب الثروة والنفوذ اسمه امبروز الاسكندري وهو ليس اسكندرياً حقيقة — والا لكنا عرفنا شيئاً عنه قبل أوبة اوريجانوس من فلسطين بناء على شهرته الواسعة — بل يحتمل انه كان احد الاصدقاء الذين اصطفاهم اوريجانوس في فلسطين . فهذه الصداقة التي كانت بين اوريجانوس وامبروز وظلت متينة العرى لحد موته اثرت تأثيراً يذكر بالشكر في حياة اوريجانوس ذلك ان امبروز كان تابعاً لشيعة من اهل البدع والهرطقة فاقنعه اوريجانوس بترك الافكار السخيفة واكتسبه ضمن اعضاء الكنيسة المستقيمة الرأي وقد افاده امبروز ايضاً

(١) قد اتفق جميع المؤرخين على ان امونيوس سكاس هذا هو الذي اسس مدرسة الاسكندرية الوثنية لتعليم الفلسفة الافلاطونية وان بلوطينوس ولونجينوس الوثنيين واوريجانوس وهراكلاس المسيحيين وكثيرين غيرهم كانوا من تلامذته الا ان الآراء اختلفت فيما اذا كان امونيوس سكاس قد اعتنق الديانة المسيحية ام لا

بان حثه على تأليف اكثر الكتب التي الفها ونسخها على مصاريفه الخصوصية وذلك بان اوجد له فرقة من الناسخين الذين يكتبون الخط المختزل ومن الذين ينسخون الكتب بالطريقة المعروفة وكان بين جماعة الكاتبين هذه عدد من الفتيات اتخذن هذه الصناعة مهنة لهن للافادة والاستفادة

وحدث في سنة ٢٢٢ ب . م ان الجيش الروماني ضجر من معاملة هليوجابلوس الشاب معاملة تدل على القسوة والوحشية ضد هذا الجيش الذي مال بكليته الى اسكندر ساويرس ابن يوليا مامياخالة هليوجابلوس وكانت امه قد ذهبت به الى رومية مع اختها عندما ارتقى هليوجابلوس كرسي المملكة وظلا في مناظرة ومساجلة الى ان افضى الامر اخيراً بوقوع حرب عوان بين الاختين وابيهما كل منهم يقود جيشاً من انصاره بنفسه وانفض الخصام بانتصار ماميا على اختها سوميا فقتلتها مع ابنها واستحوذت هي على المملكة مع ابنها

ملك اسكندر ساويرس سنة ٢٢٢ وكان عمره ١٧ سنة حين ملك وهو يعد من اعظم امبراطرة الرومان واحسنهم صفات وجلس على العرش الامبراطوري احدى عشرة سنة هي عبارة عن جهاد مستمر لاصلاح الحال والفساد اللذين استوليا على المملكة كما انه بذل ما في وسعه ليوقف تقدم الفرس وتوغلهم في المملكة الرومانية وهم اعداء الداء لها كانوا قد بلغوا في ذلك الحين مبلغاً عظيماً من القوة والمنعة بواسطة ارتباطهم واتحادهم معاً . ومما يسطر لهذا الامبراطور بالثناء

هو دفاعه عن المسيحيين وشهادته عنهم بانهم اكثر الناس كفاءة لحكم البلاد وادارة امور العباد على محور الاستقامة والامانة . ومع انه ظل متمسكاً بديانته السورية الوثنية التي شب عليها تمسكاً ظاهرياً الا انه كان يعتبر المسيح من اعاظم العلماء الكبار الذين نشأوا في العالم وافادوا الناس بتعاليمهم وآدابهم واقام له تمثالاً في معبده الخصوصي ووضعه بين تماثيل العلماء الاخرين مثل ابراهام واورفيوس واسكندر الكبير وابولونيوس الذي من تيانا . وقد عرفنا في ما مر ان كل امبراطور كان له اسم يختلف عن غيره او لقب خاص يطلق عليه في البلاد كلها وذلك لكثرة التشابه في اسماء الامبراطرة وهو امر كان كثير الوقوع حينئذ وهكذا لقب اسكندر ساويرس في أخريات ايامه بلقب مضطهد المسيحيين وهي ريبة ينفيها عنه ما ورد في اقوال المؤرخين الذين عاصروه والذين جاؤا بعده باكثر من جيلين . ولقد ازهر العلم في ايامه وأخذ فلاسفة الاسكندرية من مسيحيين ووثنيين يمارسون اعمالهم العلمية ويدأبون في التأليف والتصنيف فوضع بلوطينوس من ليكوبوليس (اسيوط) مبادىء الفلسفة الافلاطونية على طريقة قويمة وعمم نشرها وكذلك هرودیان المؤرخ اتم تاريخه في هاتيك الايام

وقد يغلب على الظن ان اوريجانوس بارح الاسكندرية مرتين اثناء حكم اسكندر هذا احداهما أنفذ فيها لمقابلة مامياوالدة هذا الامبراطور والثانية أرسل الى بلاد اليونان في اعمال تختص بالكنيسة المصرية حيث

اتى أمراً يستوجب الانتقاد اذ كانت نهايته قطع العلاقات بينه وبين صديقه الحميم ورئيسه الموقر البطريرك ديمتريوس وهو امر يذكر بالاسف الشديد خصوصاً لالتصاق اللوم بالاثنين معاً ووقوعهما في الخطاء سواء ولو ان استفحال الخرق بينهما واتساع مجال اللدد والخصام يعزى الى تحزب اصدقاء الطرفين وتحريضهم لهما جرياً وراء الغايات والاغراض

ومن الواضح البين ان ديمتريوس مع اعجابه بغيرة اوريجانوس وحماسه اللذين اوصلاه الى غلطة فادحة هي قمع جسده واضعافه وهو في عنفوان شبابه — اعتبر غيرة اوريجانوس هذه مانعة اياه من ترشيحه للرتب الكهنوتية مع انه كان اهلاً لها من كل الوجوه عدا هذا الوجه اما اوريجانوس نفسه فكان ميالاً لارتقاء الرتبة الكهنوتية الا انه كان يحترم ارادة رئيسه البطريرك في هذا الشأن ويرضخ لحكمه . وكان ديمتريوس يؤكد ثقته باوريجانوس بين كل آونة واخرى بواسطة معاملته له معاملة تدل على الثقة التامة وبارساله في مهام مهمة لها علاقة كبرى بالكنيسة مع انه علماني كغيره من عامة الناس . وليس من العجيب ان يكون روح العداء بداء بين البطريرك واوريجانوس بواسطة اصحاب الطرفين كما سبقت الاشارة كأن يكون امبروز وغيره من محبي اوريجانوس والمعجبين به اظهروا استهجاناً من حرمان اعظم لاهوتي في تلك الايام من الوظائف الروحية بواسطة بطريرك كان لم يزل الى وقت

ارتقائه السدة البطريركية فلاحاً امياً وحرضوا اوريجانوس ان يستخف بهذا البطريرك ويترك بلاده هذه ويقصد اساقفة فلسطين الذين كانوا رفقاء له في المدرسة ويعرفون قيمته ومقداره ويودون من صميم افئدتهم تعيينه في وظيفة كهنوتية . فاذا صح هذا الاحتمال فقد يكون تحريض هؤلاء القوم السبب الوحيد الذي جعل اوريجانوس يعدل عن الذهاب ثوّاً الى بلاد اليونان لاتمام المأمورية التي عهدت اليه وان يعرّج على فلسطين حيث سيم كاهناً على قيصرية

وقد احتدم ديمتريوس غيظاً لاحتقار سلطته والاستهانة به فكتب للذين كانوا السبب في الذي حدث كتابة شديدة اللهجة وغضب من اوريجانوس غضباً شديداً حتى انه لما عاد هذا الى الاسكندرية بعد مضي بضعة اشهر على رسامته في فلسطين وجد مكانته قد سقطت ومركزه لم يبق له ولكنه ظن نفسه محقاً في الخطة التي اتبعها وان ما عمله هو الصواب بعينه ولكنه لعلو همته واتساع مداركه رأى انه يخطيء اذا هو بقي في الاسكندرية في مثل هذه الظروف التي زعزعت مقامه ولذلك فض كل علاقة له مع المدرسة اللاهوتية التي كان رئيساً لها وعول على ترك الاسكندرية وكل ما فيها وهجر مصر هجراناً لالقاء بعده . وقد يصعب على المرء ان يتصور مقدار الشقاق والانقسام اللذين كان يمكن لحدوثهما في الكنيسة لو لم يتدارك اوريجانوس الامر بما فطر عليه من اشرف النفس والتواضع ويتحمل بطيب خاطر لانتيجة ما جنته عليه يداه فينسحب بتقسه بطواعية

واختياراً تاركاً هذه البلاد الى بلاد اخرى اختارها لشخصه بذاته. وكان لسوء الحظ ان ديمتريوس لم يظهر هذه الشهامة والانفة اللتين اظهرهما خصمه . صحيح قد كان له الحق في ان لا يقبل في بلاده كاهناً يعتقد بعدم صحة كهنوته وعدم صلاحيته لهذه الرتبة كما ان باقي اساقفة البلاد كتبوا له يسفهون رأي اوريجانوس تسفيهاً ولكنه لم يكتف بهذا كله فيقف عند هذا الحد. ذلك لانه مع قبول اوريجانوس حكم المجلس الذى شكله ديمتريوس من الاساقفة والشيوخ واستعفائه من رئاسة المدرسة اللاهوتية ومهاجرته مسقط رأسه ومنبت أسلته. كل هذا لم يزد ديمتريوس الا حنقاً عليه وسخطاً خصوصاً وان اوريجانوس قوبل في فلسطين مقابلة المنتصر الفائز على خصمه واكرم اصدقاءه الاساقفة هناك وفادته ورفعوا منزلته كثيراً ولا ريب انهم كانوا مستعدين لاجراء هذه المظاهرة لاوريجانوس لمعرفتهم بما سيتم له في مصر . والذى يراجع ما كتبه يوسيبيوس في هذا الصدد يتضح له ان اساقفة فلسطين اظهروا اعجاباً واستحساناً لاعمال اوريجانوس وتحقيراً وتسفيهاً لاراء ديمتريوس الامر الذى اغاظه غيظاً يعذر عليه ولكن كيفما كانت اسباب هذا الغيظ فهي لا تخلي ديمتريوس من الملام الواقع عليه بما عمله من جمعه اساقفته وحصوله على قرار منهم يقضي بحرمان اوريجانوس حرماً باتاً وارساله خطابات الى جميع الكنائس يعلمها بهذا القرار وذلك لانه استشاط غضباً من هروب اوريجانوس الى فلسطين كما يهرب العبد الآبق

واحتقاره اياه مع ماكان له من عميم الفضل عليه وحق الرئاسة ايضاً وحبه له وهو بعد في مهد الطفولية . اما اوريجانوس فعد هـذا الحرم غاية في القسوة والحدة كما يظهر لك ذلك من نص كتاب كتبه اثناء اقامته في قيصرية وهاك ملخصه :

« وحدث بعد هذه الامور ان الله اخرجني من ارض مصر بيت العبوديه كما خلص شعبه منها قديماً . ثم قام عدوي (يعني البطريرك) واقام في وجهي حرباً عواناً بواسطة مكاتيبه التافهة التي تغاير مبادي الانجيل تماماً وحرك ضدي ريحاً صرصراً فرأيت من الصواب ان اقاوم جهد استطاعتي مدافعاً عن المبداء المهم الذي اختطيته لنفسي وسرت عليه وهو الافادة والاستفادة وكنت اخشى من ان هذه المماحكات العقيمة يستفحل شرها فتثير ثائرة النفس الامارة فتضعف الذاكرة حينئذ واعجز عن اتمام شرح الكتاب المقدس الذي بدأت به قبل ان ينطمس ذهني خصوصاً وان ابتعادي عن النساخ الذين كانوا يكتبون الخط المختزل منعني من عملية مايخطر على بالي من الافكار . اما الآن وقد بعدت عن كل عوامل التأثير وقدر الله جل وعلا ان تعيش تلك السهام الناريه التي صوبت نحوي وتذهب في الهواء ألفت نفسي حينئذ وقوع الملمات التي كانت تصيبني بسبب التبشير بكلمة الانجيل واضطرت هذه النفس ان تتحمل بطيب خاطر جميع المصائب التي اتاتني فهداء روعي وسكن جأشي لجودة الهواء وحسن الطقس فعقدت النية على عدم تأجيل نسخ وتلاية المؤلفات المطلوب مني اتمامها »

ولنرجع الى القرار الذي صدر بحرم اوريجانوس فنرى ان اساقفة بلاد العرب واليونان وكبدوكية وفلسطين قابلوا هذا الحكم الصارم غضاء وعدم اهتمام وظل اوريجانوس يزاول في فلسطين كل العمل المطلوب منه ككاهن فوق مشاغله اليومية في التدريس والابحاث اللاهوتية . ولم يسلم اوريجانوس من غلطات يقع فيها جميع البشر على السواء فيما

يختص بمعاملتهم لاعدائهم ومبغضيهم وقلما ينجو منها احد خصوصاً وقت الحدة التي تبدل الحلم بعنف والتواضع بتشامخ وكان من اوريجانوس انه وعظ يوماً في اورشليم فاتخذ آية موضوعه قوله « يقول الله للاشرار لماذا تضعون عهدي في افواهكم وانتم قد رفضتم الاصلاح واطرحتم كلامي خلف ظهوركم » ولكنه لم يكد يتم قراءة هذه الآية حتى نخسه ضميره ووبخه قلبه وشعر ان صديقه ورئيسه البطريرك ديمتريوس قد يمكن ان يأول هذا الكلام تأويلاً يطبقه على نفسه فسالت دموعه على خديه كالسيل المنهمر واجهش في البكاء حتى لم يعد يستطيع النطق فتأثرت الكنيسة لتأثره وبكت لبكائه . وهذه احدى نتائج الضمير الحي الذي لم يقض عليه القضاء الآخير

واقام اوريجانوس نهائياً في قيصرية وتبعه اليها امبروز وزوجته وكل عائلته وتوافد اليه التلامذة افواجاً للاستنارة بمشكاة علمه وفضله . اما رفيقاه في التلمذة وهما هراكلاس وديونيشيوس اللذان كانا من اعز اصدقائه في مصر فلم تخمد نار محبتهما له ولكن عند ما حمي وطيس الجدال بينه وبين البطريرك ديمتريوس انحازا لرأي البطريرك والدليل على ذلك انه عند ما رقيا الكرسي البطريركي بالتوالي في اثناء حياة اوريجانوس لم يفكرا في ارجاعه الى الاسكندرية مرة اخرى . وبعد هذه المخاصمة الغبية بين هذين الصديقين بقليل تنيح البطريرك ديمتريوس شيخاً وشبعان من الايام بعد ان شهد ستة امبراطرة توالوا على العرش الروماني وخلفه

هراكلاس اما ديونيشيوس فعين رئيساً للمدرسة اللاهوتية بالاسكندرية

الفصل الثامن

اضطهاد ديشيوس للمسيحيين. سنة ٢٣٥ ب . م

بعد ان رحل اوريجانوس الى فلسطين بسنتين من الزمان قتل الامبراطور اسكندر بيد مكسيمينوس وهو بطل مغوار جمع كل شي تحت سلطته وساعده على ذلك اهمية مركزه في الجيش حتى اصبح سيداً تعنو له رقاب اولئك الجنود الذين كانوا يتلونون كالحرباء ويخضعون لمن ملك وهم الذين عضدوه في تدبير المؤامرة ضد سيده فقلب عرشه ورقي كرسي الامبراطورية ضد رغبة مجلس النواب الذي لم يستطع الاعتراض على عمل كهذا يعضده الجيش ويرغب فيه . وكان اول امر شرع فيه مكسيمينوس مقاومة المسيحيين ومناجزتهم وذلك لان اسكندر سلفه كان يثق بهم ويعطف عليهم فبداء اضطهاده في ايطاليا وفلسطين وألقى القبض في قيصرية على امبروزوصديق آخر لاوريجانوس كان تلميذاً له قبلاً واستاقوهما الى المانيا ليسجنا في سجونها اما اوريجانوس فقر هارباً ولجاء الى قيصرية كبدوكية والتقى فيها باسقفها فرميليانوس الذي كان من ضمن اصدقائه والمعجبين به كثيراً واقام اوريجانوس مدة في هذه المدينة في منزل امرأة اسمها يوليانا كانت على جانب عظيم من الثروة والتهذيب. ولما بداء الاضطهاد في مصر اضطر البطريرك هراكلاس

ان يترك الاسكندرية فراراً من وجه مكسيمينوس ولكن كثيرين من المصريين المسيحيين تجرعوا الموت كأساً دهاقاً في الاسكندرية والاقاليم

ولم تدم مدة هذا الظالم الغشوم طويلاً فلم تكد تمض ثلاث سنوات على ملكه حتى حدثت ثورة في موريتانيا احدى المقاطعات الرومانية اندك بها عرشه وخلفه غورديان وابنه اللذان ملكا ثلاثة شهور انتهت بان انتحر الاب انحاراً وقتل الابن في حرب اغتيالاً وعقبهما مكسيموس وبلبينوس اللذان انتخبا انتخاباً اما مكسيموس فهجم عليه جيشه وقتله غيلة. ولما كان لعائلة غورديان مكانة سامية في ذلك الوقت لم يرض الجيش وعامة الشعب بغيرها ولذلك اجهزوا على بلبينوس الذي انتخبه مجلس النواب مع مكسيموس فقتلوه في القصر الامبراطوري برومية ونادى الجيش بغورديان الثالث امبراطوراً والبسوه التاج الروماني وهو بعد في الخامسة عشرة من عمره . وعند ما ملك هذا الفتى استراحت البلاد من الاضطهاد ولو ان الحرب لم تلق اوزارها بعد . ولما هداء ثائر الاضطهاد عاد اوريجانوس من كبدوكية الى قيصرية والتقى بامبروز الذي يحتمل انه استفاد من المصائب التي وقعت على الحكومة اذ انتهز فرصة انقلاب السلطنة بواسطة الثورات المتتالية وفر من سجنه. اما غورديان فملك ست سنين لم يحدث فيها ما يستحق الذكر سوى انها كانت سني سلام وآمان فنمت فيها الكنيسة المسيحية في مصر نمواً يوجب الشكر والدليل على ذلك ان البطريرك هراكلاس أوجد عدة ابروشيات جديدة في

الاقاليم. وقدذهب بعض المؤرخين الى ان هراكلاس كان اول بطريرك مصري اطلق عليه لقب بابا وهذا خطاء فان اللقب المذكور كان معروفاً في مصر من اول نشأة الديانة المسيحية فيها وكان يطلق على القس والاسقف سواء. وفي هذه المدة جاء مصر يوليوس افريكانوس الشهير

ويغلب على الظن انه في اواخر حكم غورديان شرع اوريجانوس في رحلته الثانية الى بلاد العرب وكان بريلوس اسقفها الذي سبقت الاشارة اليه قد وقع في حبائل بدعة جديدة كان يعلمها للناس وهي ان مخلصنا يسوع المسيح لم يكن له في عالم الوجود وجود قبل ان يولد بالناسوت فباحثه اوريجانوس طويلا وناقشه كثيراً في هذا الشأن حتى تغلب عليه بقوة الحجة والبرهان واقنعه بغلطه وبذا منع شقاق جديد كاد يقع في الكنيسة . وقد يكون اوريجانوس عرف شيئاً كثيراً في هذه الرحلة عن رجل اسمه فيليب من البصرة كان ابوه يلقب برئيس عصابة لصوص — وبعبارة اوضح كان بدوياً يسكن القفار — وعين فيليب هذا ضابطاً قضائياً وكان قبل تعيينه يدس الدسائس ضد مولاه الملك.

اما الفرس الذين عرفناهم قبلاً اقوياء متحدين فقد بدأوا يستعملون قوتهم في اثناء حكم غورديان باغارتهم على الحدود الشرقية للمملكة فضاق غورديان ذرعاً من معاملتهم هذه وصمم اخيراً ان يسير اليهم بجيش يتولى قيادته بنفسه . ومع ان انهزام احد الطرفين كان لا بد منه الا ان بلوطينوس الفيلسوف الافلاطوني الاسكندري الشهير رافق هذه

الحملة آملاً ان يستفيد شيئاً من فلسفة الفرس التي كانت لا تقل كثيراً عن فلسفة اليونان . فانتهز فيليب السابق ذكره هذه الفرصة للايقاع بسيده الامبراطور غورديان فتوصل اخيراً الى اغتياله وذبحه وله من العمر احدى وعشرون سنة ثم عقد فيليب معاهدة صلح مع الفرس وذهب مسرعاً الى رومية. وقد عاد بلوطينوس بعد ان لاقى صعوبات جمة في طريقه اذ كان يخشى عليه من الوقوع في ايدي الجيش الفارسي وقطن في رومية ينشر فيها علومه التي استوعبها من فلاسفة الفرس وعلماء الاسكندرية

قال يوسيبيوس ان فيليب هذا كان مسيحياً وهذا خطاء يناقض ما رواه يوسيبيوس نفسه من ان قسطنطين هو اول امبراطور مسيحي كما ان فيليب اضطهد المسيحيين في مصر ولا يمكن ان يضطهدهم لو كان مسيحياً . وقبل ان يبتديء اضطهاد ديشيوس الآتي ذكره تنيح البطريرك هراكلاس وخلفه ديونيشيوس الذي كان رئيساً للمدرسة اللاهوتية

وكان ديونيشيوس هذا من عائلة عريقة في النسب وتربى تربية وثنية . ومما يروى عنه ان امرأة مسيحة فقيرة اقرضته يوماً ما رسائل بولس الرسول ليقرأها فما اتم قراءتها حتى استفاد منها فائدة كبرى وشعر بلذة عظمى من مطالعة هذه الرسائل فاشتراها حالاً ودار يسأل عن الكتب الاخرى التي يقتنيها المسيحيون حتى يستعيرها منهم فاشارت

عليه تلك الامرأة التقية ان يذهب الى القسوس فهم اعرف منها بذلك فعمد اليهم من فوره وعرض عليهم امره فقدموا له باقي الاسفار وهم فرحين مسرورين . فعمل الروح القدس في قلبه عمله المعروف واعتنق هذا الشاب الوثني الديانة المسيحية ومن ثم تتلمذ لاوريجانوس كما سبق القول . ومن المؤكد ان ديونيشيوس كان متزوجاً ولكن يحتمل ان امرأته كانت قد ماتت عند ارتقائه الكرسي البطريركي وكان ايضاً من مشاهير رجال عصره ومن فطاحل علماء زمانه وقد كتب كثيراً في مواضيع شتى لم تزل بعض كتاباته باقية الى يومنا هذا سندرج بعضها فيما يلي ومنها يتضح الشدة والضيق اللذان قاساهما المسيحيون بمصر في هاتيك الايام المرة . وبعد ان تعين ديونيشيوس بطريركاً اعقبه بيروس في رئاسة المدرسة اللاهوتية وكان كغيره من ائمة تلك الاعصر قساً عالماً وكاتباً ماهراً فضلاً عن انه عرف بزلاقة اللسان وفصاحة المنطق وبلاغة الكلام حتى سموه اوريجانوس الصغير . وقد ذهب البعض الى انه مات شهيداً فاذا صدق قولهم فيكون استشهد في الاضطهاد الذي احدثه الامبراطور فاليريان كما سيجيء القول ولكن تاريخ موته لم يعلم قط وعلى اي حال فانه مات قبل سنة ٢٨٢ ب . م وذلك لانه عند ما سيم ثيوناس بطريركاً في السنة المذكورة لم يكن بيروس رئيساً للمدرسة اللاهوتية بل كانت تحت رئاسة ثيوغنوسطس الذي لا يعرف عنه شيء . ومن الذين رضعوا لبان العلوم اللاهوتية على يد

بيروس رجل شهير من قيصرية اسمه بامفيليوس وذلك في مدرسة الاسكندرية الطائرة الصيت حينئذ

وكان الاضطهاد الذي وقع في حكم فاليريان محصوراً في مصر فقط فلم يتعدها الى غيرها وسببه التعصب الديني من الوثنيين ضد المسيحيين وليس هو بامر من الحكومة كالاضطهادات الاخرى . وقد كتب ديونيشيوس بعد نهاية هذا الاضطهاد كتاباً بعث به الى فابيان اسقف انطاكية وفيه وصف للاضطهاد المذكور كما انه احد الخطابات التي وعدناك بنشرها دلالة على مقدرة ديونيشيوس على الكتابة والتحرير وهاك هو :—

« ان الاضطهاد الذي اصابنا لم يحدث بناء على أمر من الحكومة بل ان ناره كانت مخبوءة تحت رماده مدة سنة كاملة فالتظت عند ما اثارتها زند التعصب . وتفصيل ذلك ان شاعراً يدعي النبوة وقد على الاسكندريه وكان مجيئه شؤماً عليها اذ جال فيها يهيج سخط الوثنيين ضدنا ويحرضهم على الدفاع عن خرافاتهم واباطيلهم التافهة فتم له ذلك واثار ثائرة الوثنيين نحونا وساعدهم على عملهم ما اباحته لهم الحكومة من اجراء اي شر وضرر يرغبونهما لنا كما انهم ظنوا ان منتهى التقوى والقداسة تنحصر في عبادة اوثانهم وشياطينهم وان هذه العبادة تتم بذبحها او تقديم اجسادنا قرباناً لاصنامهم . وكان اول شر ارتكبوه ان امسكوا رجلاً شهر سيفه المتوحش وطلبوا منه ان يجدف ويهزأ بكلام

بذي فرفض الرجل طلبهم بتاتاً وحينئذ انقضوا عليه كالوحوش واخذوا يضربونه بالعصي وينخزون وجهه وعينيه بمناخس وهو ثابت القلب ساكن الجاش فلما يئسوا منه اخرجوه خارج المدينة ورجموه بالحجارة حتى مات . ثم اتفقوا جميعهم وساروا مندفعين الى منازل المسيحيين فكانوا يدخلونها بقوة غير مراعين حرمة الجيرة ولا شروط المروة ويخرجون السكان منها ثم يتلفون كل ما وصلت اليه ايديهم الاثيمة فيأخذون الاشياء الثمينة القيمة اما الاثاث والامتعة البيتية فيجعلونها طعاماً للنار اذ يحرقونها على قارعة الطريق حتى اذا رآهم احد وهم يركضون ويسلبون ويقتلون ويحرقون ظنهم جيشاً ظفر بمدينة ففعل بها فعل الغالب المنتصر . اما المسيحيون فلم يبدوا ادنى مقاومة بل وقفوا يراقبون خراب بيوتهم وهم سكوت صامتين فكانوا مثل اخوتهم الذين اشار اليهم بولس الرسول في انهم كانو ينظرون سلب امتعتهم بفرح . ولست اعرف سوى رجل فقط من الذين وقعوا في ايديهم انكر ايمانه ولكن بعد عناء شديد وعذاب قاس واعرف ايضاً انهم القوا القبض على عذراء عفيفة فاضلة اسمها ابو لوينا وكانت قد هرمت وشابت ناصيتها واخذوا يضربونها على فكيها حتى حطموا اسنانها تحطيماً ثم اشعلوا ناراً خارج المدينة وهددوها بالحرق حية ان لم تنطق بكلمات التجديف والسخر التي كانوا يلقنونها اياها فاصابتها في اول الامر قشعريرة شديدة من شدة الآلام ولكنها عادت فتجلدت وثبتت فلما

رأى معذبوها عدم فائدة هذا العذاب طرحوها في النار واحرقوها حتى صارت رماداً . وقد امسكوا ايضاً رجلاً اسمه سرابيون بينما كان في بيته واذاقوه عذابات يقصر القلم عن وصفها ويرق الحجر الصلد من تأثيرها حتى كسروا جميع اضلاعه وسحقوها سحقاً واخيراً طرحوه على ام رأسه من فوق علو شاهق . وكان اذا سار الانسان ليلا او نهاراً في الشوارع والازقة لا يسمع سوى صراخ وضجيج وقوم يهددون ويعذبون كل من رفض ان يجحد ايمانه وينكر مسيحه ولا يشاهد المرء غير اناس اتقياء يجرم الاشرار على وجوههم ثم يطرحونهم في النار المتقدة فيحرقونهم كالهشيم . وقد بقيت هذه الخطوب متفاقمة مدة من الزمن الى ان ظهر هياج سياسي اعقبه حرب اهلية [1] جرفت في سبيلها كل شرير اثيم ولذلك استرحنا قليلا اذ انصرف شرهم عنا الى بعضهم بعض ولم نكد نتنفس الصعداء حتى حاق بنا الخوف وحفنا الخطر عند ما أبدل ذلك الملك الذي كان ارق جانباً واقل شراً من غيره بملك آخر قد لا يجلس على كرسي المملكة الا ويوجه انظاره نحونا فيعمل على اضطهادنا . وقد بدأ حدسنا يصدق وظننا يتحقق حالما صدر [2] امر شديد الوطأة مثلما انباء بذلك مخلصنا له المجد متضمناً عبارات تصك منها الركب حتى اوشك المختارون على السقوط والعثار وعم الخوف الجميع واركن كثيرون من المشاهير الى الفرار ورفت كل مسيحي في خدمة

(١) كانت نتيجة هذه الحرب الاهلية قتل فيليب وارتقاء ديشيوس الى الكرسي الامبراطوري
(٢) هذا الامر اصدره ديشيوس في سنة ٢٥٠ ب . م

الحكومة كيفما كان ذكاءه ونباهته وكان كل وثني يعرف احد المسيحيين ويرشد عنه كان يؤتى به على عجل ويدعون الواحد باسمه حتى يتقدم الى هيكل الاوثان فيطلب منه تقديم الذبيحة الوثنية وكان عقاب من يرفض تقديم الذبيحة للصنم ان يكون هو نفسه ذبيحة للصنم بعد ان يجهدوا في اقناعه بذلك بكل وسائط التخويف والارهاب بينما كان يوجد جمهور من الوثنيين التأم هنا لك وهو يهزاء ويسخر بكل مسيحي يكون حظه اما نكران الايمان وتقديم الذبائح للاوثان واما الموت الذي هو نهاية كل انسان. ولكن بعض ضعيفي الايمان انكر ايمانه وهو واقف امام المذبح الوثني واثبت انه لم يكن مسيحياً قط فمثل هذا يصدق عليهم قول المخلص المجيد انهم بالجهد يخلصون . وكان البعض يقتدون بهذا الجاحد والبعض يتمسكون باذيال الفرار وغيرهم قبض عليهم وطرحوا في السجون مكبلين بالقيود والاغلال ومنهم من انكر الديانة المسيحية بعد ان سجن قليلا ولم يحاكم وكثيرون بقوا متمسكين بالدين المسيحي معترفين به مع صعوبة العذابات التي ذاقوها مدة طويلة. وكثيرون قوام الله وارسل لهم معونة من لدنه فبقوا مرتبطين بوحدانية الايمان الصحيح ولم يميلوا عنه يمنة او يسرة وكان من امرهم ان صاروا اركاناً متينة في بيت الرب وعليهم بنيت الكنيسة المصرية كما انهم دعوا شهوداً امناء على مجد ملكوت ابن الله . وكان في مقدمة

هؤلاء الاتقياء رجل اسمه يوليانوس اصيب بالنقرس (داء المفاصل)

فلم تكن له مقدرة على السير او القيام من مكانه فساقوه الى المحاكمة يحمله رجلان على كتفيهما ولما تقدم هذان الرجلان امام المحكمة انكر احدهما ايمانه بلا امهال واما الثاني واسمه كرونيون ولقبه انبوس فاعترف بايمانه اعترافاً صريحاً كما اعترف يوليانوس ايضاً ولذلك حملوهما على جملين وطافوا بهما في جميع انحاء الاسكندرية ـ وهي كما تعلم واسعة الاطراف ـ وكانوا يجلدونهما بالسياط جلداً عنيفاً واخيراً طرحوهما في لهيب يتقد بالنيران فصارا رماداً بينما كان مضطهدوهما وقوفاً يتفرجون عليهما كأنه من المناظر التي تسر لها النفوس »

وقد سطر ديونيثيوس ايضاً ما حدث من استشهاد ستة رجال واربع نساء فيهم شاب في ريعان عمره اسمه ديوسقوروس . وكان بعض هؤلاء المذكورين من الاقاليم وبعضهم من الاسكندرية . وهاك مضمون الجواب المذكور

« بعد ان جلد اولئك الاتقياء بالسياط طرحوا في اتون النار انتقاماً لديوسقوروس فاعطاه القاضي مهلة يتدبر فيها نتيجة اصراره على التمسك بايمانه عساه يعود فيجحده اشفاقاً من القاضي على نضارة شبابه وخصوصاً لما آنسه فيه من العقل والرصانة عند ما كان يجيب على الاسئلة التي سألوه اياها . قال الكاتب — وها انا اخط هذه السطور وديوسقوروس قائم بجانبي يطفر من الفرح الروحي منتظراً عذاباً مريعاً والماً موجعاً قد يصيبه الآن »

كتب الجواب المذكور آنفاً حالاً بعد بداءة الاضطهاد الذي اثاره الامبراطور ديثيوس اما المكتوب الذي سيجيء ذكره فيستدل من

اوائله انه كتب في زمن سابق لهذا الزمن غالباً في ايام الاضطهاد الذي وقع في مدة فيليب . اما السبب الذي الجأ البطريرك ديونيشيوس الى كتابة الرسالة التالية فهو ان جرمانوس احد اساقفة الاقاليم بلغه ان هذا البطريرك لم يتبع الخطة التي سار عليها سلفه الاسبق ديمتريوس في انه هرب من الاسكندرية بعد بدائة الاضطهاد بقليل ولم يعد اليها الا بعد ان استراح المسيحيون هنيهة لسبب الخصومة التي وقعت بين الامبراطورين دقيوس وفيليب عن المملكة وقد اشار اليها ديونيشيوس في كتابه الآنف ذكره . فرأى جرمانوس ان هروب البطريرك ديونيشيوس من الاسكندرية اثناء الاضطهاد ناتج عن جبن وخوف ولذلك وبخه توبيخاً عنيفاً فقام ديونيشيوس يدافع عن نفسه وينفي التهمة التي وجهت اليه بأنفة وغيرة حيث قال :ـ

« الى جرمانوس سلام

« وبعد فاني اتكلم امام الله واشهده على نفسي انني لا اكذب فيما اقول بان هروبي لم يكن طبقاً لارادتي كما لا ادعى انني اتيته بناء على الهام من الله بل الواقع انه قبل ما بتدي الاضطهاد الذي اثاره دقيوس جاء رجل اسمه فروتاريوس من قبل حابينوس ليبحث عني وكنت قد مكثت في منزلي نحو اربعة ايام انتظر مجيء فرومتاريوس الذي لم يأت الى بيتي تواً بل ذهب ينقب في كل مكان في الشوارع والحقول وبقرب الانهر حيثما ظن انني اختبيء هناك وكانه ضرب بالعمى فلم يستطع العثور على منزلي لانه لم يخطر بباله قط انني ابقى في البيت وقت الاضطهاد . فمرت الاربعة ايام على هذه الحالة الى ان اذن لي الله ان اترك كبني وفتح لي طريقاً سلكت فيه بكيفية عجيبة جداً فخرجت من المنزل ومعي اتباعي وكثيرون من الاخوة

المسيحيين وكان ذلك بتدبير من الله وعناية منه ظهرت لنا في كل الذي تم معنا بعد ذلك وبدونها لم نكن نذكر بشيء او نفيد شيئا . وعند ما آذنت الشمس بالمغيب امسكني العساكر انا ورفقائي وقادونا الى سجن نابوسيرس ولكن تيموثاوس (يحتمل انه ابن هذا البطريرك) لم يكن موجوداً ولم يلق القبض عليه وذلك بعناية الهية فانه لما دخل البيت وجده قفراً والمزار بعيدا وليس فيه سوى خدام يحرسونه اما نحن فصرنا عبيدا ارقاء وقد اتفق ان رجلا من الارياف رأى تيموثاوس راكضاً تلوح عليه دلائل الخوف والجزع فسأله الرجل عن سبب جريه فاوضح له تيموثاوس جلية الخبر . وبعد ان سمع الرجل هذا الامر ذهب في طريقه وكان قاصدا وليمة عرس ـ وكانت العادة ان الناس يحيون كل الليل في الافراح ـ فلما استقر به الجلوس في المجلس قص هذا الخبر على آذان المدعوين لهذه الوليمة فلم يكن الا كلمح البصر حتى نهضوا جميعهم نهضة رجل واحد كانهم كانوا على اتفاق سواء وجاؤا مسرعين كالسيل الجارف واندفعوا علينا كالثعور واخذوا يصرخون ويضجون باصوات كالرعد القاصف فلما رأى العساكر الذين كانوا يحرسوننا ما جرى ولوا الادبار واركنوا الى الفرار فانقض اولئك علينا انقضاض البواشق بينما كنا نياماً على اسرة ليس عليها شيء من الفراش . ويعلم الله انني ظننتهم في باديء الامر جماعة من اللصوص جاؤا قاصدين السلب والنهب ولذلك ظللت نائماً على فراشي كما كنت دون ان ابدي حراكا وليس علي شيء من الملابس سوى قميص من الكتان اتدثر به واما باقي ثيابي فكانت مطروحة بجانبي فقدمتها لهم عند ما اقتربوا مني . اما هم فلم يكونوا يقصدون النهب ولا يبتغون الثياب بل امروني ان اقوم من مربضي واسير معهم مسرعا الى حيث يريدون . فلما ادركت قصدهم من المجيء الينا اخذت في البكاء والعويل واخذت اتوسل اليهم متضرعا ان ينصرفوا عنا ويتركونا وشأننا وقلت لهم انهم اذا شاؤا ان يعملوا معنا جميلا فليستأذنوا الذين ادخلوني في هذا المكان ومن ثم يقطعون رأسي فلما صحت عليهم هكذا كما يشهد بذلك رفاقي والذين اشتركوا معي في الضيقات اجتهد اولئك القوم ان يأخذوني قسرا رغما عني ولذلك القيت بنفسي على الارض مطروحا على ظهري ولكنهم لم يشفقوا عليّ بل امسكوا يدي

ورجلي وجروني خارجا وتبعني الذين شاهدوا هذه الحادثة وهم كابوس وفوسطس وبطرس وبولس (غير الرسولين المعروفين) فاخرجوني خارج المدينة واركبوني حمارا غير مسرج ».

وقد بلغ اضطهاد ديشيوس منتهى القسوة والصرامة في فلسطين ولكن اوريجانوس تقوى هذا المرة فلم يهرب وكان قد عاد حديثاً من زيارته الثالثة لبلاد العرب حيث اضل الشيطان بعض اعضاء الكنيسة فيها فصاروا يكررون بميلاد جديد هو ان اللاهوت مات مع الناسوت وقام معه ثانية في وقت واحد (١) . فجرد اوريجانوس سيف الحجة والبرهان في هذه المرة ايضاً وفاز باقناع اولئك المبتدعين الذين خالفت اراؤهم وافكارهم تعاليم الكنيسة كل المخالفة اما اوريجانوس فلم يكد يصل فلسطين عند عودته اليها من بلاد العرب حتى طرح في السجن . ولم يذكر يوسيبيوس شيئاً عن كيفية القاء القبض على اوريجانوس بل ذكر عنه ما يأتي في سياق كلامه عن اسكندر اسقف اورشليم وبسيليوس اسقف انطاكية اللذين قال عنهما انهما ماتا في السجن بعد عذاب اليم: قال يوسيبيوس :. —

« يصعب على الكاتب الماهر وصف ما قاساه اوريجانوس واحتمله بصبر وفرح من العذابات المرة والآلام القاسية اثناء هذا الاضطهاد اذ وضعوه في مقطرة من حديد وزجوه في اعماق السجن حيث ظل بضعة ايام مطروحاً على خشبة وهو

(١) كان المصريون القدماء يعتقدون انه ولو مات الجسد الا ان الروح والنفس البشرية تبقيان حيتين الروح في عالم آخر والنفس في الجثة المحنطة (المومياء) التي حفت لبقاء النفس فيها الى يوم القيامة الى ان تعود الروح وتتحد مع النفس كما كانتا قبلا . ومن هذا الاعتقاد وجدت عندهم اهمية تحنيط الجثث كمسكن للروح ليس الا

مشدود باربعة وثاقات لا يستطيع معها الحراك وهم يشعلون النار من حوله تهديداً له وتخويفاً وغير ذلك من مراثر شرحها يطول ووصفها يهول ذاقها هذا المسيحي من اعدائه العديدين ولكنه لم يبد ضجراً ولا اظهر مللا ولم يزل يازمة انفرجي وعند ما انتهى القوم من تجريع اوريجانوس كل اصناف العذاب قدموه للحكم عليه بالموت فسعى القاضي الموكل بالحكم جهده في تأخير موته ليس ليتحبى اوريجانوس منه بل ليطيل عذابه باطالة ايام حياته . فالذي تم لاوريجانوس من آلام وعذاب يجدر بان يكون عبرة لمن يعتبر وذكرى لمن يتذكر وتعزية للذي وقع في مصاب او اصابه شر وتجربة وعلى من يرغب شرحاً وافياً عن ذلك عليه بمراجعة رسائل اوريجانوس التي بقيت بعده فيجد فيها اخبارا يوثق بصحتها وتفصيلا وافياً عما اصابه واصاب غيره من قبله ».

اما الرسائل الكثيرة التي كتبها اوريجانوس واشار اليها يوسيبيوس في ما كتبه آنفاً فلم يبق منها سوى رسالتين فقط ليس فيهما شيء عن الاضطهاد الذي احدثه ديشيوس وقد يمكن ان ماذكره عن هذا الاضطهاد موجود في رسائله الاخرى التي اصبحت هباء منثوراً . ولو ان كل ما ورد في كتاب يوسيبيوس عن اوريجانوس قد ضاع ولم يبق شيء منه الا انه عجيب في ان ذكرى هذا الرجل وتأثيره الشخصي بقي فعالاً مؤثراً في ايام كان ديجور ظلامها يلمس بالايدي وشرها يسمع صريره بالآذان . اما عذاب اوريجانوس فلم يقف عند الحد المار ذكره بل بقي مدة طويلة تتقلب فيها الرجل على فراش الضنى والحول حتى بلغت روحه الحلقوم ولكن ظهر له شعاع من الفرح والسرور عند ما وافاه مكتوب من البطريرك ديونيثيوس يشجعه فيه ويشاطره الاسى والاسف مظهراً فيه ارق العواطف

واشرف الاحساس الا ان هذا الجواب الثمين ضاع كما ضاع غيره من المكاتيب المفيدة

وقد زل كثيرون من المسيحيين اثناء اضطهاد ديثيوس هذا وقدموا الذبائح للاوثان اجابة لطلب معذبيهم فاخذت هذه المسألة دوراً مهماً في الكنيسة عن كيفية المعاملة التي يعامل بها الذين سقطوا عند ما يخف وزر الاضطهاد ويأتون ليعترفوا بخطاياهم ويتوسلوا الى الكنيسة لكي تقبلهم ثانية في احضانها . فقر الرأي على قانون للتوبة سن بعد ذلك بقليل للسير بمقتضاه في هذه الاحوال والظروف الصعبة وقد يمكن ان هاته المسألة كانت موضوع البحث في كل اضطهاد حدث ولكن بت الحكم فيها هذه المرة فقط واصبح العمل بها امراً مقرراً بعدان تداولت عنها مكاتبات ورسائل كثيرة بين اساقفة الاقاليم وكان اكثرهم ميالا للرفق بحال من يتوب توبة حقيقية الا ان نوفاتوس احد كهنة رومية خالف زملاءه في هذا الشأن وكان رأيه ليس مما يحمد عليه فضلا عن انه تحصل على تصديق مزور من اساقفة في بلاد بعيدة يدعي فيه انه عين اسقفاً لرومية. فرجل بمثل هذه الصفات يرتقي المناصب الكهنوتية زوراً وبهتاناً لا يصعب عليه ان يشدد النكير على الذين زلت بهم القدم في مدة الاضطهادات ويقسو عليهم قسوة متناهية حتى انه اوجد قانوناً مخصوصاً في هذا الصدد مفاده ان الذين جحدوا الدين المسيحي ولو مرة واحدة لسبب الاضطهاد لا يمكن قبولهم في عضوية الكنيسة مرة ثانية ولو تابوا توبة بدموع

ما دام ان الكنيسة لا قدرة لها على مسامحتهم وغفران خطاياهم وعليه انعقد مجمع في قرطجنة مؤلف من نيف وستين اسقفاً عدا الكهنة والشمامسة تحت رئاسة كبريانوس للنظر في هذا الامر فقرر اخيراً باجماع الاراء القرار الآتي وهو :

« حيث ان نوفاتوس والذين جاروه على آرائه عولوا على انتهاج طريق العدوان وسلكوا مسلكا يخالف الطبيعة البشرية كل المخالفة فهؤلاء يعتبرون منشقين عن الكنيسة ما داموا يخالفونها في قراراتها . اما الاخوة الذي وقعت عليهم المصائب الروحية وضلوا السبيل السوي فيلزم علاجهم بدواء التوبة الشافي حتى ينقهوا »

وقد اتفق المجمع كله على استئناف القضية الى اسقف الاسكندرية أو هو بابا الاسكندرية . اما كرنيليوس الذي انتخب حديثاً اسقفاً لرومية بدل فابيان الشهيد — ذلك لان تعيين نوفاتوس الغير القانوني لم يقر عليه الرأي ولا اعترف به احد سوى رهط يعد على الاصابع — كتب الى ديونيثيوس كتاباً شديد اللهجة متين العبارة يشكو فيه « الثعلب الخبيث المحتال » وهو يقصد بذلك نوفاتوس المذكور . اما نوفاتوس فكتب الى دنيثيوس يعتذر عن رسامته الغير قانونية ويقول انه اضطر لقبولها اضطراراً اجابه لمتلمس بعض الاخوة والحاحهم عليه . فقوارص الكلام التي طعن بها كرنيليوس وكبريانوس في صدر نوفاتوس لم تؤثر فيه بشيء ولكن الرسالة التالية التي ارسلها اليه البطريرك دنيثيوس فعلت في قلبه فعل قطرات الماء في جرف هار وهاك الرسالة :

« ديونيثيوس يهدي سلامه الى اخيه نوفاتوس — وبعد . فاذا صح ما قلته وصدق اعتذارك في انك قبلت الوظيفة بطريقة غير قانونية ضد رغبتك فعليك ان تبرهن ذلك بان تترك هذه الوظيفة برغبتك وتعتزلها بارادتك لان الواجب علينا ان نحتمل كل شيء ونذوق كل هوان وعذاب لا ان نسيء اساءة تؤثر في كنيسة المسيح التي افتداها بدمه . واعلم هداك الله ان المجد الاسنى والشرف الاعظم يكونان لنا كاملين اذا نحن متنا شهداء لاجل الكنيسة من ان نسهل لابنائنا تقديم الذبائح للاوثان وانكار الايمان . ومن رأيي ان الذي يموت شهيداً لاجل ايمانه انما يربح نفسه وينال المجد والثواب لشخصه فقط ولكن الذي يموت لاجل الكنيسة فهو يفيد الكنيسة ونفسه ايضاً . والنتيجة انك اذا اقنعت اخوانك وحملتهم على اتمام مبادي الاتفاق والوئام فتكون حسناتك قد زادت عن سيئاتك والا ان لم تستطع التأثير عليهم وخالفوا وساطتك فاعمل على الاقل لخلاص نفسك واربأ بها . وفي الختام اهديك تحيتي وسلامي على أمل انك راغب في السلام عامل على توطيد دعائمه باسم ربنا يسوع المسيح »

وقد يحتمل ان فابيوس اسقف انطاكية كان ميالاً لاحتذاء حذو نوفاتوس من حيث التشديد على الذين انكروا ايمانهم وتابوا ومعاملتهم بالعدوان والقسوة ولذلك كتب اليه ديونيثيوس كتاباً نأتي على ملخصه هنا وهو :

« اليك مثال عما حدث في مثل هذه الامور التي نتناقش فيها الآن ومنه يظهر لك كيف تصرفنا نحن : حدث ان رجلا هرماً اسمه سيرابيون وهو مسيحي لا غش فيه قضى حياة طويلة بكل تقوى واماناة . كان قد ذبح للاوثان اثناء اضطهادهم اياه ولكنه عاد فاقر بذنبه واستغفر ربه عن خطيته فلم يقبله احد او يرق لحاله انسان . فاصاب الرجل مرض عضال لزمه الفراش وظل ثلاثة ايام متوالية لا يعي ولا يتكلم وفي اليوم الرابع افاق قليلا من غشوته فدعى اليه ابنه الاكبر وقال له « لقد طال يا ابني زمن حجزك لي فاتوسل اليك ان تسرع وتطلقني من عقالي فارجوك ان تذهب وتأتي لي باحد شيوخ الكنيسة » . لما قال هذا عاد الى غشوته وصمته واما الغلام فاسرع الى شيخ من مشائخ الكنيسة ليدعوه كامر ابيه وكان الوقت ليلا والشيخ مريضاً . وكنت قد اصدرت امراً قبل هذا الوقت بقضي بان الذين على حافة الموت اذا شعروا بحاجتهم للتوبة والحوا في طلب المغفرة يجب ان يمنحوها حتى ينتقلوا من هذا العالم وقلبهم مملوء من التعزية والرجاء بالحياة الابدية . وعليه جاءني الغلام فاعطيته جزءاً من العشاء الرباني وقلت له ان يغمسه في الماء ويضعه في فم هذا الرجل الهرم . فذهب الولد مسرعاً الى البيت ومعه لقمة الخبز التي اعطيته له ولما قرب من مدخل الباب كان سيرابيون قد عاد اليه رشده فنهض قائلا « لقد جئت يا بني ولكن الشيخ لم يقدر على المجيء معك فعليك اتمام ما أمرت به ومن ثم اطلقني بسلام فقد ابصرت عيناي خلاص الرب » فقبل الشاب اللقمة ووضعها حالا في فم ابيه الذي لم يلبث حتى ازدردها وفاضت روحه الى خالقها . ألم يكن هذا الرجل قد تاب توبة حقيقية وألم يظل حياً الى ان نال المغفرة ومحيت جميع ذنوبه ؟ وهلا يعتبر هذا الرجل اتقي مؤمناً لاجل اعماله الصالحة الكثيرة التي عملها في حياته وعند موته ؟ »

وقد يذكر القراء الكرام رجلاً اسمه بولس الناسك وهو احد اركان الرهبنة في بر مصر نشأ هذا الرجل في مدة هذا الاضطهاد ولكن شهرته لم تبلغ حدها الا بعد انقضاء الاضطهاد بمدة طويلة حتى ان البطريرك

ديونيثيوس فلما يعرف شيئاً عنه. وكان مسقط رأسه مدينة طيبة الوسطى ومات ابواه وله من العمر خمس عشرة سنة وتركا له ارثاً وافراً واملاكاً واسعة ساعدته على التربية الحسنة التي شب عليها وكان بعد موت ابويه يقطن في منزل لاخته التي كانت متزوجة بزوج غير مسيحي وبقي عندها الى ان حدث الاضطهاد الذي اثار غباره ديثيوس فاعتزل منزلا في الارياف كان لصهره وذلك لكي ينجو بنفسه من هول الاضطهاد وويله ولم يمكث في هذا المنزل المعتزل طويلا حتى انذرته اخته بان زوجها عقد النية على اخبار الحكومة بحقيقة حاله وارشادها اليه حتى تقتنصه فيتمتع هو بماله وعقاره الذي يؤول اليه بالارث من بعده. فخطر على بال بولس حينئذ قول السيد المسيح له المجد « من أحب أخا أو أختاً أو حقولاً الخ اكثر مني فلا يستحقني » وعليه وهب أخته وزوجها جميع ما يمتلكه من حطام العالم وصمم على أن يعيش عيشة منفردة في الصحاري والقفار ولا يستأنس باحد الا بالله كما فعل القديس فردنتونيوس من قبله. فجاء الى شقيقته الوحيدة يودعها وداعا لالقاء بعده وساريحث مطايا الجد في عرض الفلاء قاصداً الصحراء التي كان فيها فردنتونيوس على مسيرة يوم من نهر النيل الى شمالي ممفيس وهناك صرف جزءاً من حياته في التجوال والطواف يبحث عن مكان مناسب يقيم فيه الى أن عثر بطريق الصدفة على خلوة تحيط بها كثبان وتلال فاصابت غرضه واتخذها دار اقامة ما بقى من أيام حياته. وكان باب

هذه الخلوة غير ظاهر من الخارج فلا يستطيع أحد أن يلجها الا اذا كان عارفا بها من قبل وعند مدخل الباب توجد ردهة واسعة يمر بها النسيم رطباً ناشفاً وهي محاطة من جميع الجوانب بصخور صماء يعسر حتى على الاميل أن تمر عليها وليس بينها وبين القبة الزرقاء فاصل أو حاجز بل من كان داخلها يسهل عليه أن يرى « السموات تنطق بمجد الله والفلك يخبر بعمل يديه » فهي من كل وجه تليق برجل يريد العبادة الانفرادية ويرغب فيها. واتفق ان بولس وجد في هذا المكان آلات عجيبة الصنع وكثير من المعادن القديمة مرت عليها حقبات من الزمن وهي باقية هنالك لم تمسها يد بشر فاخذ يبحث وينقب عن أصل هذه المعادن وسبب وجودها هنا فعرف بما كان عليه من العلم والتربية وفرط الذكاء ان هذا الموضع كان يستعمل لصك النقود الزائفة التي كان يشتغل فيها المزيفون في عهد الملكة كليوبترا الشهيرة. وأهم شيء سر له صاحبنا هذا ان نخلة برزت من جوف الارض ونمت في هذه الخلوة وكان يجري تحتها ينبوع صغير من ماء كالزلال الذي لم يبق له أثر الآن كانما قد غار في الرمال وانطفى خبره. ففي هذه العزلة المارو صفها اقام بولس الناسك وقضى في زهده بتوليته مدة تسعين سنه على ما يقال فاذا صح ذلك فيكون مات وعمره ١١٢ سنه لان عمره كان ٢٢ عاما لما فارق أهله وذويه وعكف على النسك. وليس في هذه العبارة ما يدعو للعجب والاستغراب بالنسبة لطول حياة بولس الناسك

فان الباحث المدقق يعرف ان كثيرين من النساك المصريين عمروا طويلا . اما بولس فكان يقتات في بادي أمره ببلح تلك النخلة ويشرب من ماء النبع الذي ينساب تحتها ولكن بعد قليل بلغ خبره مسامع أهالي البلاد القريبة منه وعلموا بما جبلوا عليه من البساطة والسذاجة ان رجلا صالحاً تقياً جاء وقطن على مقربة منهم ولذلك وفدوا اليه زرافات ووحداناً ومعهم هدايا من خضار وخبز وكانوا يستشيرونه في أمورهم ويهتدون بهديه في حل معضلات أعمالهم فكان ينصحهم في الامور الدنيوية كما انه كان يعظهم ويبشرهم بالديانة المسيحية فذاع صيته في الافاق وسمع به كل مصري حتى ان انطونيوس جاءه قبل موته بقليل لتزوده النظرة الاخيرة ويتقبل دعواته الطيبات وظل مقيما معه الى أن مات فوارا لحده (١)

وفي الوقت الذي فيه نبذ بولس العالم وعمد الى الزهد كان مئات غيره في جميع البلاد المصرية تركوا كل شيء واتبعوا المسيح بطريق التنسك والاعتزال في الصحاوي والقفار ولكن قلما يعرف شيء عنهم . أما اضطهاد ديشيوس الذي طال واستبطر قد انتهى الآن وجاء وقت الفرج بعد ضيق شديد وذلك انه في اكتوبر سنة ٢٥١ ب م قتل ديشيوس هذا في غارة شنها عليه سكان شمالي أوربا الذين بدأوا

١ ـ في كتاب العلامة كنجسلي عن « النساك » تجد شرحاً وافياً عن تاريخ حياة بولس الناسك وكيفية موته

يغيرون على المملكة الرومانية في سنة ٢٥٠ وبعد موت هذا الامبراطور خلفه غالوس الذي أوقف سريان الاضطهاد . وقد كتب البطريرك ديونيسيوس كتابا بعد هذا الوقت بقليل الى اسطفانوس أسقف رومية الجديد يثني فيه عاطر الثناء على الكنيسة التي وضعت حداً للشقاق الذي أوجده نوفاتوس في الوقت الذي فيه كف الاضطهاد عنها

وممن وقعوا تحت طائلة اضطهاد ديسيوس القديس مركوريوس المعروف « بابي سيفين » وقد استشهد بعد عذاب طويل . هذا القديس له عند المصريين منزلة عليا فهم يجلونه ويحترمونه ولذا تجدهم قد لفقوا عنه أقاصيص وخرافات لا طائل تحتها وبالغوا في أمره حتى قالوا انه هبط من السماء لقتل يوليانوس المترفض ويؤكدون لك صحة هذه الخرافة تأكيد من شهد الشيء بعينه واذا راجعت كتاب مستر بتلر الانكليزي عن « الكنائس القبطية » تجد في الجزء الثاني منه روايتين من الروايات التي يتناقلها المصريون عن أبي سيفين هما من الغرابة بمكان

أما أوريجانوس فقد أفرج عنه عند موت ديشيوس ولكن هذا الافراج لم يغنه شيئاً بعد أن ذاق عذابات الاضطهاد ومصائب السجون فلم يعش بعد ذلك سوى سنة واحدة ومات في مدينة صور وله من العمر تسع وستين سنة ودفن في المكان الذي مات فيه وظل قبره معروفاً يحج اليه الزوار الى أن جر الخراب ازياله على هذه المدينة ولاشاها من الوجود . وقد بنيت كنيسة عظيمة فوق ضريحه كان يزورها

كثيرون من السياح والرواد وبقيت على عظمتها وأهميتها الى منتصف القرن السادس عشر اذ زال المكان الذي دفن فيه أوريجانوس ولم يبق له ذكر سوى في بطون الروايات والتواريخ . ولو ذهبت الآن الى صور وسألت أهاليها عن ضريح أوريجانوس لاشاروا لك الى اطلال كنيسة قديمة بنيت أكواخهم الآن عليها وقالوا لك ان جسد أورينوس — وهو أوريجانوس عندهم — مدفون في قبو من قباب تلك الكنيسة هو الآن تحت الارض

والذي يتصدى لنقد تأليف هذا الرجل العظيم الذي يعد من مشاهير المصريين في تاريخ كهذا قد تتداولته الايدي — لا يكون مصيباً في نقده بل قد يشذ عن الحقيقة ويبتعد عنها خصوصاً وان كتبه التي الفها تفوق الحصر والعد حتى ان ابيفانوس نقل عن بعض التقارير المنسوبة في ذلك العهد ان اوريجانوس الف نحو ستة آلاف كتاب ونبذة وغير ذلك وهذا قول لايخلو من المبالغة والغلو اوهو غلطة من الناسخ الذي كتب ٦٠٠٠ بدل ٦٠٠ بزيادة نقطة لاتقدم ولا تأخر في الكتابة ولكنها تفيد معنى اكبر واوسع في القراءة والفهم . وعلى اي حال فان السمائة كتاب يؤلفها رجل واحد كان يشتغل باعمال كثيرة ليس مما يستخف به بل هو عدد وافر قد لا يأتيه الكثيرون من ذوي العقول الواسعة . ولم يبق من هذه الكتب الكثيرة سوى بعضها واكثر هذا البعض ناقص ضاع اسمه ولكن الكتب الكاملة انما هي عبارة عن شرح مسهب لاكثر اسفار العهدين القديم والجديد

وردود مفحمة على شلسوس وغيره من الهراطقة الذين جادلهم مشافهة وكتابة وبين هذه الكتب الموجودة رسائل تحتوي على مواعظ وخطابات وانذارات وابحاث عديدة في كل موضوع اهمها واشهرها نبذة له عنوانها « المبادي الاساسية » كتبها في الاسكندرية وعمره اذ ذاك ٣٥ سنة ثم « ترجمة التوراة الى ست لغات » وقد سبق القول عنها « والرد على شلوس المبتدع » « وكيفية الصلاة وفائدتها »

ومع ان تاريخ قرطجنة لا علاقة له بتاريخنا هذا ولكننا لانرى مندوحة من ذكر لمحة منه بها يظهر الفرق بين الكنيستين العظيمتين في افريقيا هما كنيسة مصر وكنيسة قرطجنة وفيها تتضح صفات اعاظم الرجال الذين نبغوا منهما في ذلك العهد . فلنأخذ اثنين من كنيسة قرطجنة واثنين من كنيسة مصر مثالاً على ما سيأتي . فمن الاولى طرطوليانوس وهو رجل عمر طويلاً ومات في مدة الامبراطور ديشيوس ثم كبرياتوس كان في ذلك الحين قد بلغ شاوًا يذكر من السلطة وطيب السمعة . فاذا انت قرأت ما كتبه ذانك الرجلان وقابلت كتاباتهما مع ما سطره اكليمنضس واوريجانوس تعجب كثيراً وتسأل عما اذا كان هؤلاء الاربعة رجال قد نبغوا في وقت واحد ويعتقدون اعتقاداً واحد . وكان يمكن ان الكنيستين تكونان على نظام واحد خصوصاً وانهما زرعتا في ارض واحدة يد رجل واحد وترعرعتا تحت سماء واحدة ولكن الفرق وجد من ان كنيسة

الاسكندرية كانت مصرية النسبة والاصل يونانية اللغة واما كنيسة قرطجنة فكانت فينيقية النسبة والاصل ولاتينية اللغة

والذي يجهد نفسه للوقوف على كنه الكنيستين الافريقيتين يأخذه العجب والاندهاش عند ما يرى الاختلاف العظيم بينهما في السجايا والتعاليم . ولو ان هاتين الكنيستين تمسكتا بتعاليم الديانة المسيحية الجوهرية واعترفتا برب واحد واله واحد الا ان هذه التعاليم كانت مثل القمر يظهر نصفه منيراً لجزء من العالم بينما النصف الآخر المظلم الذي يبعد عن الشمس يكون ظاهراً للجزء الآخر من سكان الكرة الارضية ولكنه مظلم . فعلى هذا القياس كان قانون الايمان المسيحي يظهر امام الكنيسة المصرية كنوراً لامع وضوء ساطع ويتخلى امام اعين كنيسة قرطجنة ككتلة من الاسرار المبهمة والرموز الغامضة التي لا يحدها العقل ولا يتصورها الادراك . واذا سألت طرطوليانوس واوريجانوس واوغسطينوس عن قواعد الدين المسيحي لاجابوك جميعهم جواباً واحداً ولاتفقوا معاً في جوهره ونصه ولكنهم يختلفون (أي المصريون والقرطجنيون) اختلافاً كبيراً في عمله وتأثيره في قلوبهم واخلاقهم اذ ترى القرطجني مثلاً يسلك الطريق المسيحي من غير الوجهة التي يسلك فيها المصري ولعل سبب هذا الاختلاف والتباين في سلوك الكنيستين اختلافهما في ديانتيهما الوثنيتين القديمتين اللتين ظل تأثيرهما فيهما حتى بعد اعتناقهما الدين المسيحي . فاذا

بحثت مثلاً في ديانة القرطجنيين القديمة وجدتها ديانة مركبة من عقائد صارمة وعوائد قاسية تقضي بتقديم الذبائح البشرية وتحتم على المتمسكين بها وجوب الانتقام من المسيء ولو طال عليه المطال ومرت عليه الايام والليال وهي عادات لو فرائض كان القوم يفتخرون بها ويتباهون بانفاذها فلما دخل القرطجنيون داخل حظيرة المسيح ولبسوا ثوب الديانة المسيحية القشيب ضعفت فيهم روح القسوة وحب الانتقام ولكنها لم تنتزع تماما بل ظل اثرها موجوداً في صدورهم كما تشاهد اثر الشمس في الافق عند المغيب ولذلك كان طرطوليانوس مثلاً يعتقد ان الله هو الله يسر بعذاب مخلوقاته التي تشذ عن طاعته ويفرح بالانتقام من الذين يخالفون ويحيدون عن طريقه السوي وانه يفتقد ذنوب الاباء في الابناء ويدخر العقاب من جيل الى جيل . ولما كان الطبع البشري يميل من عادته الى مثل هذه المبادىء ويود لو ان يصرح للانسان ان ينتقم ويقاص كل من يغيظه ويغضبه عم هذا الروح كل الكنيسة الغربية التي سارت على تعاليم اوغسطينوس من حيث تشديد العقاب على كل من اساء ولو اساءة صغيرة وتشهير كل من اقترف ذنباً . وهو تعليم صارم جرت عليه الكنيسة الغربية نقلاً عن كنيسة قرطجنة بينما رفضت تعاليم اوريجانوس التي تأمر بالمحبة والتساهل والمسامحة وغض الطرف عن الهفوات والذنوب وتجاهلت تواضعه ودماثة اخلاقه ولم تكتف بذلك بل حكمت عليه بالهرطقة والابتداع ولا ذنب له يستوجب ذلك اللهم الا ان يكون علو افكاره

وغزارة مادته وتبحره في العلوم والمعارف التي كانت تسر بها نفسه ويصبو اليها قلبه . والنتيجة ان الكنيسة الغربية استصوبت تعاليم اوغسطينوس الصارمة وحسبته ضمن اعمدة الكنيسة بينما خطاءت روح اوريجانوس المحبة وشجبته شجباً ولا عجب في ذلك ولا غرابة ما دام الانسان يميل الى ما يوافق طبيعته المنحطة وافكاره الساقطة

فكنيسة قرطجنة التي مر بك وصفها قد زالت من الارض واختفى منها العين والاثر واما الكنيسة المصرية فلم تزل باقية لليوم ولم تختلف شيء عن الكنيسة الاصلية بل هي رسم جوهرها وصورة مجدها. وقد وصفها احد العلماء العصريين — هو مستر بتلر الانكليزي — المشهور بميله الى الكنيسة القبطية وحبه لها فقال ان نظام هذه الكنيسة يمتاز عن نظام الكنائس الاخرى شرفا ورفعة لتجرده من كل ما يشين ويهين وانها اسمى الكنائس ولو انها وصلت الآن الى درجة من الانحطاط يأسف عليها محبوها. والذي يرفع الكنيسة القبطية في اعين العقلاء هو انها قاست من الاضطهادات المريعة ما يكفي لاضمحلال الممالك وعانت من العذابات والمشقات ما لم يقع لاي كنيسة اخرى في العالم ولكنها لم تزل حية نامية وقد ساعدها على الحياة الطويلة هذه روح الرجاء والامل اللذين نشأ معها وثقتها الوطيدة في مخلصها وفاديها. واذا انت طفت الكنائس المصرية ودخلت افقر واحقر كنيسة من الكنائس القبطية لرأيت علامات الرجاء والامل تبدو على جدرانها وقلما

شاهدت فيها صورة تشير الى جهنم او عذاب مقبل بل قلما وجدت فيها تمثال جمجمة باهتة ولا هيكل عظام عار مما يشير الى آلام وسقام ولكن ترى شهداءها تبتسم تماثيلهم المرسومة على الجدران كأن ما قاسوه من العذابات والاضطهادات لم يكن شيئاً يذكر بل اصبح نسياً منسياً وهناك تشاهد القديسين الابطال مصورين بشكل يدل على انهم قتلوا ثبانا او احد رؤساء هذا العالم الشرير دون ان يجدوا في قتله عناء يذكر اما آلامهم واوجاعهم فليس لها اثر في ذلك الرسم كما لا تجد صورة تمثل الخاطيء بعد موته مما تشمئز منه النفس وتنكمش لمرآه الروح. فهؤلاء الاتقياء الابرار الذين اسسوا الكنيسة القبطية بدمائهم كانوا يطرحون انفسهم بين يدي الله وهم مسرورون فرحون كما انهم كانوا يطلبون رحمة منه على الذين كانوا يضطهدونهم ويذيقونهم الحسف والجور »

الفصل التاسع

اضطهاد فاريان للمسيحيين . سنة ٢٥٤ ب . م

بعد موت ديشيوس تزاحم القوم وتعاركوا كعادتهم للحصول على الملك وانتهى الامر اخيراً بارتقاء غالوس العرش الملوكي وظل قابضاً على صولجانه مدة سنتين ثم استلمه ابنه ايليانوس الذي نادى بنفسه امبراطوراً وبقي مقيماً بضعة شهور في مقاطعة بانونيا . ففي هذه المدة خفت وطأة الاضطهاد عن المسيحيين ولكن داء الدفتيريا (الخانوق) الذي اشار اليه

ديونيشيوس في جواب يلي كان قد انتشر في البلاد زمنا قبل حكم غالوس وبعده

وفي شهر يوليو سنة ٢٥٤ ب م نودي بفاليان امبراطوراً على المملكة الرومانية وهو رجل من سلالة عائلة رومانية طائرة الصيت كان قد تقلب في اهم مناصب الحكومة ورتبها وبعد ان استتب له الامر اشرك معه ابنه غالينوس في ادارة شؤون المملكة . وقد رأيت فيما مر بك ان الامبراطرة الرومانيين كانوا يتعاقبون بسرعة على الكرسي الامبراطوري ولم تطل مدة احكامهم بل كانو يمرون على العرش مر السحاب في الصيف ويظهر ان داء التغيير السريع والابدال المتوالى عم اساقفة رومية ايضاً فساووا امبراطرتهم في كثرة التغيير والتعاقب فانه منذ عهد تعيين ديونيشيوس بطريركاً للكنيسة المصرية تعين في رومية من الاساقفة فابيان وكرنيليوس ولوشيوس واسطفانوس ثم اكسيستوس الذي كتب له ديونيشيوس في ذلك العهد كتاباً بشأن رجل عمدة الهراطقة المشار اليهم هم من اتباع نوفاموتوس اسقف رومية الغير القانوني الذي كان يعلم بعدم وجود مغفرة للخطايا التي يرتكبها الانسان بعد عماده وهو تعليم أثر تأثيراً سيء العواقب في انه جعل الكثيرين يؤجلون عمادهم الى ساعة احتضارهم كما فعل الامبراطور قسطنطين . وقد سار فاليان على الخطة التي سار عليها اكثر الامبراطرة الرومانيين في انه اظهر ميلاً وانعطافاً نحو المسيحيين في اوائل حكمه وكان قصره

منتدي يؤمه المسيحيون وكثيرون منهم استخدموا عنده . الا انه كان مغرماً كثيراً بحكمة المصريين القدماء وعلومهم يحب المتضلعين منهم بهذه العلوم حتى انه اتخذ احد المصريين واسمه مكريانوس الحاكم القضائى مشيراً له وكان يثق به تمام الثقة وكان البطريرك ديونيشيوس يلقب مكريانوس هذا « استاذ السحرة المصريين ورئيسهم الاعظم » وربما كان يقصد بذلك ما لمكريانوس من التأثير الشديد في عقل الامبراطور كما كان يؤثر كهنة المصريين القدماء في اذهان الملوك ويقتادونهم وراءهم. وعلى اي حال فان مكريانوس كان متمسكا اشد التمسك بديانة اجداده القدماء ولذلك كان لا ينفك يلح على مولاه الامبراطور ليقنعه بان المصائب التي تحيق بالمملكة سببها تغاضي الآلهة الحقيقيين « يقصد بهم آلة المصريين القدماء » عن المملكة واهمالهم شأنها والترخيص للناس بان يعتقدوا بخرافة لا اساس لها وهي صلب ذلك النجار « اعني يسوع المسيح » . وقد صادف قول هذا الرجل قبولا خصوصاً وان المملكة كانت في ذلك الحين واقعة في اشد المصائب ومحاطة باقوى الملمات لدرجة لم يسبق لها مثيل اذ اكتنفها البرابرة وسكان شمالي اوروبا والجرمانيون والفرنساويون والبورغنديون والفرس من كل ناحية وانهاروا على المقاطعات الرومانية كالسيل الجارف وكانوا يبثون في الارض فساداً ويهلكون الزرع والضرع في كل بلدة وطائفة اقدامهم وصاروا يجرفون في طريقهم مدينة بعد اخرى مبتدئين من طاراقونا في اسبانيا

الى انطاكية في سوريا . ومما زاد الطين بلة ان الدفتيريا التى بدأت قبل موت ديشيوس زاد انتشارها وعم بلاؤها خصوصاً في بر مصر حيث بقيت خمس عشرة سنة تفعل في الناس فعل الصارم البتار . وقد القى البطريرك ديونيشيوس تبعة تجديد الاضطهاد على عاتق مكريانوس وعزى اليه سبب كل شر وقع على المسيحيين وهو امر لا يستوجب الريب لان مكريانوس عدو لدود لديونيشيوس ورعيته دينيا وقد عرفنا انه ملاء قلب الامبراطور بغضا وحقداً على المسيحيين اخوته في الوطنية الذين لم يتكلم عنهم كلمة واحدة توجب الشفقة والحنان

وقد علمت فيما مضى ان جرمانوس احد اساقفة الاقاليم المصرية كان قد ارسل الى بطريركية ديونيشيوس يلومه لانه هرب في ايام الاضطهاد الذي احدثه ديشيوس وقد عاد جرمانوس فارسل جواباً الى ديونيشيوس ايضاً يعنفه فيه لانه امر بابطال الاجتماعات الجمهورية في الكنيسة فردعليه ديونيشيوس بكتاب يصف له فيه كيفية القاء القبض عليه واحضاره مع قومه امام الوالى واعترافهم جميعاً بايمانهم وكيف انهم ارسلوا اسرى ليسجنوا في مكان اسمه سيفرد شمالي القطر المصري .

قال ديونيشيوس : —

« ولما حللنا سيفرد التف حولنا جم غفير من الاخوة الذين جاؤا معنا من الاسكندرية ومن الذين وفدوا الينا من مصر بعد وصولنا الى هنا اوهكذا مهد الله سبيلا لكلمته في هذه الجهة كما في كل الاماكن الاخرى . صحيح ان اعداءنا في بادىء الامر اضطهدونا ورشقونا بالاحجار ولكن اخيراً ترك كثيرون

من الوثنيين اصنامهم ونبذوها ظهرياً واقبلوا الى الله بقلوبهم لان كلمته غرست في افئدتهم كما يغرس البذار في ارض ذات زرع وكانوا لم يسمعوا عنها من ذي قبل . وكان الله جل وعلا اراد ان يأتي بنا الى هذا المنفى لنذيع بشرى الخلاص فيه فلما تم ذلك وافلحنا شاءت مشيئته ان ننقل الى مكان آخر لهذه الغاية عينها وذلك ان ايميليانوس ابن الامبراطور غالوس قصد ان ينقلنا الى اماكن اشد ضرراً واكثر تعباً مشحونة بالمخاوف والمخاطر ثم امر بمكان اقليم مربوط ان يلتئموا في مكان واحد خصصه لهم وعين لهم قرى معروفة يقيمون فيها فيما بعد اما نحن والذين تبعونا فاوصى بان نبقى مطروحين في الطريق بلا مأوى ولا ملجاء لانه لم يكن يشك في اننا اناس لا نركن للفرار ولا نميل للهرب بل وثق انه متى اراد يسهل عليه القبض علينا بدون مشقة . ولا اخفي عنك انه عند ما صدر اليّ الامر بالارتحال الى سيفرد هذه لم اكن اعلم الى اين اسير ولا اعرف شيئاً عن المكان الذي انفى اليه بل كنت بالكاد اعرف اسمه من قبل ولكني كنت فرحاً جذلا لعلمي ان هكذا كانت ارادة الله الا انه لما امروني بالانتقال الى مكان اسمه كولوثيوس تأثرت تأثيراً شهده الحاضرون لانني علمت بان هذا المكان سيكون كسجن لي لاستطيع فيه ان اتم العمل المطلوب مني ولذلك تضايقت اولاً لهذا الخبر وثقل سماعه على اذني مع انني كنت عالماً بهذا الاقليم واكثر خبرة به من غيري ولكن قيل لي انه خال من الاخوة المسيحيين وليس فيه احد من افاضل الرجال الذين تلتذ النفس لمعاشرتهم فضلا عن انه عرضة لوقاحة المسافرين ورذائلهم ومكمن للصوص وقطاع الطرق الا ان بعض الاخوة واسوني اذ اخبروني انه قريب من مدينة الاسكندرية . ومما يسر القلب ان سيفرد التي نفينا اليها جعلتنا بكثيرين من الاخوة المسيحيين الذين لم نكن لنراهم لولاها وبواسطة اجتماعنا وارتباطنا تمكنا من نشر كلمة الله واذاعة خبر الخلاص بطريقة لم نكن لنحصل عليها لولا هذا المنفى . واذ كانت الاسكندرية قريبة من المكان الذي كنا نقيم فيه تمتعنا كثيراً بمشاهدة الذين نحبهم ونميل اليهم وقد كانوا يجثون لزيارتنا دائماً ويمكثون معنا طويلا ولذلك كنا نمثل جمعية عظيمة كانت تلتئم في اقصى مكان من الاسكندرية ولم تزل هذه الجمعيات توالي انعقادها لسماع كلمة الله حتى بعد ان تركناها ورجعنا الى مدينتنا »

قال يوسيبوس ان بين القسوس والشمامسة الذين اشار اليهم ديونيشيوس في جوابه الملار ذكره قس اسمه فوسطس استشهد في الاضطهاد الذي اوجده ديوكلتيان كما سيجيء وكان قد بلغ من الكبر عتياً . ومن الذين ذكرهم ديونيشيوس في جوابه مكسيموس الذي عين بطريكاً بعده ويوساب الذي سيم فيما بعد اسقفاً للادوكية ومما رواه ديونيشيوس انه بعد ان آب من منفاه الى الاسكندرية لم يجد من شمامسة الكنيسة سوى ثلاثة فقط مع انه ترك عدداً وافراً منهم ظلوا مختبئين في مكانهم وكانوا يتهزون الفرص ليعظوا الاخوة ويبشروهم ولكنهم ماتوا جميعهم بداء الدفثيريا ولم يبق الا اولئك الثلاثة المذكورين وهم فوسطس ويوساب وكويرمولى

وقد استمر اضطهاد فاليان للمسيحيين مدة ٤٢ شهراً وانتهى في سنة ٢٦٠ب . م اذ وقع هذا الامبراطور في ايدي الفرس حياً وظل في اسرهم الى ان مات وكان قد خلفه ابنه غالينوس الذي عقد محالفة مع اوديناثوس ملك تدمر (باميرا) واتخذه له صديقاً في الشرق الادنى وفوض اليه الدفاع عن حدود المملكة وصد هجمات الفرس عنها . وكان من اعمال غالينوس ايضاً انه ابطل الاضطهاد حتى تسنى للبطريرك دنيشيوس ان ساح في القطر المصري سياحة طويلة افتقد فيها رعيته التي كادت تتفرق ايدي سبا من اهوال الاضطهادات كما انه دشن كنائس ورسم خداماً لها حسبما دعت الحاجة الى ذلك وبذل

جهده في تعزية شعبه ومواساته في مصائبه كما هو الواجب المحتم على كل راع صالح ولما وصل في سياحته الى ابروشيته ارسينو في (الفيوم) وجد فيها شقاقاً ما كاد يبتدىء حتى استفحل أمره وخيف من نتيجته واتماماً للفائدة نأتي على وصف هذا الشقاق واسبابه وكيفية تصرف هذا البطريرك لازالته فنقول

كان في هذه الابروشية قبل ذهاب البطريرك اليها اسقف اسمه نيبوس اشتهر بالعلم والفضل وسمو المدارك حتى ان شعبه كان يثق به ثقة الاعمى بدليله وينقاد اليه انقياد الخراف لراعيها . هذا الاسقف اخذ يعلم رعيته تعليماً جديداً وهو قرب الزمن الذي يملك فيه المسيح الف سنة على الارض كملك ارضي يأتي بنفسه ويتولى الملك بذاته وقد فسر لهم كل ما ورد عن هذا الموضوع في سفر الرؤيا تفسيراً حرفياً والف كتاباً اعترض فيه على الذين يذهبون الى ان ما جاء في هذا السفر هو مجاز محض ثم اجتهد كثيراً في اثناء حياته باقناع شعبه بقبول هذا التعليم فقبلوه على علاته دون فحص او استقصاء عما يعتقد به باقي اخوتهم المسيحيين في المسكونة . وحدث بعد موته ان اشتدت بينهم المجادلات والمباحثات في هذا الموضوع واخيراً انشق منهم جماعة اتخذت رجلا اسمه كراسيون زعيماً لها . وكان لحسن الحظ ان شعب الابروشية باكمله اتفق على رأي واحد هو استئناف الحكم في هذه المسألة للبطريرك حال وصوله اليهم لاعتقادهم بكفاءته على حل المعضلات وفض المشاكل . فلما جاء

(ديونيشيوس عندهم اجتمع حوله القوم فقابلهم بكل بشاشة وايناس بدون تميز احدهم عن الاخر ودعا اليه كهنة وشمامسة الابروشية وبعض علماء العلمانيين الذين انتخبهم لهذا الغرض واقترح عليهم البحث والمناقشة في هذا الموضوع ولكن بروح الاخلاص والمحبة وان تقرأ على مسامعهم النبذة التي كتبها نيبوس في هذا الصدد بصوت عال ثم يفحصونها ويتفيون فيها الى ان يتوصلوا لرأي سديد يقر قرارهم عليه ويكون القول الفصل في هذا المشكل فيتجلى الامر على تملم الصفاء والوئام . فرضي الشعب بهذا الرأي الثاقب وظلوا ثلاثة ايام متوالية يلتئمون من الصباح الى المساء حول البطريرك الذي كان جالساً في وسطهم — كما ترى في ايامنا هذه بعض المشائخ يجلسون في حوش الجامع الازهر وحولهم المجاورون يتكأ كأون عليهم كتكاكؤهم على ذي جنة يسألونهم ويستفسرون منهم ولكن الفرق بين هؤلاء واولئك ظاهر كالصبح — وكانت نتيجة هذا الاجتماع ما ستقراءه في الرسالة الآتية التي كتبها ديونيشيوس نفسه وهي

« انه ليسرني جداً ان اعلن على رؤوس الاشهاد ما شاهدته في هؤلاء الاخوة من الثبات والاخلاص والمحبة والذكاء عند ما بدأنا بالبحث في هذا المعضل وكيف انهم تبادلوا الاراء وتناقشوا في الاسئلة والابحاث بروح الاعتدال والهدوء اذ عجبنا بقدر الامكان الاصرار على صحة الافكار التي تتفق معنا ولو ثبتت صحتها قبل ان نفحصها جيداً ونمتحنها كثيراً كما اننا لم نصرف جهدنا في المعارضات والمماحكات بل سعينا جهد استطاعتنا في ان لا نشذ عن الموضوع الذي نتناقش فيه ولا ان نتركه الى غيره قبل ان نبت فيه حكماً نهائياً . ومن احسن ما يقال في

هذا الشأن انه اذا عرض لاحدنا ان يغير فكره في ما يعتقده وشعر بخطائه لا يخجل في اعلان ذلك والعدول عنه الى طريق الصواب بقوة الحجة ومتانة البرهان باخلاص وطهارة قلب ما دامت غايتنا الاقتناع بما ورد في كتاب الله الطاهر والتسليم بتعاليمه المقدسة . وكانت النتيجة ان كوراسيون — متبدع هذا التعليم وزعيمه — اعترف امام جميع الاخوة جهاراً بخطائه وعقد النية على مسمع منا جميعاً بان لا يعود يتمسك بهذا التعليم ولا يتباحث فيه مع احد ولا يقوه ببنت شفة فيما يتعلق به وذلك بعد ان اقتنع تمام الاقتناع بفساد آرائه وصحة آراء الذين يذهبون غير مذهبه وقد سر جميع الحاضرين لنتيجة هذا المؤتمر الروحي واثنوا يثنون ويشكرون ما شاهدوه في بعضهم من الميل الى السلام والابتعاد عن كل ما يوجب الشقاق والخصام »

ولم يكتف ديونيشيوس بذلك بل خطر على باله فيما بعد ان يدحض هذه الافكار كتابة فالف فذلكة دعاها « المواعيد الآلهة » نقتطف منها ما يأتي : —

« لقد تمسك البعض بما كتبه نيبوس وجعلوا له اهمية عظمى كأن ذلك الرأي من الحقائق الثابتة التي لا يمكن دحضها حيث اكد لهم ان المسيح سوف يملك ملكا ارضياً هذه هي المسألة التي اختلف فيها مع نيبوس وانقضها نقضاً ولما في ما عدا ذلك فانني واياه على مبدأ واحد كما انني اقول صراحة انني احبه حباً متيناً لا تؤثر فيه المنافسات ولا يزعزعه اختلاف في الرأي ولا انكر انني اقدر هذا الرجل حق قدره لقوة ايمانه وتقواه وتضلعه في الكتاب المقدس ولانه انسان شديد الذكاء حازم الفكر حتى انه وجه التفاته مرة لى تلحين المزامير للترتيل فافاد الكثيرين بهذا العمل الجليل وانار اذهانهم . وما زلت احترم هذا الرجل واجله لانه مات موت الاتقياء العاملين وفارق هذا الدار الفانية دون ان يرهبه الموت او يخشى ظلمة الرمس والنتيجة انه يجب على كل عاقل ان يحبه ويفضله على كثيرين غيره . اذاً فردي عليه ويحق فيما كتبه ودحضي لافكاره لا يعتبر عملا عدائياً له لانه اذا تحتم علينا ان نقبل الحقيقة ولو كانت صادرة من اعدائنا وجاهر باستحساننا للصدق

ولو كان من اقل الناس واضعفهم كذلك يجب تقويض اركان كل قول لم يبن على اساس متين وتسفيه كل رأي لم يؤسس على المبادىء الصحيحة والتعاليم الحقة ولو صدر هذا القول من اعز الناس لدينا واكبرهم مقاماً عندنا . ولو كان نيبوس حياً لما اقدمت على الرد على افكاره كتابة بل لاكتفيت بالبحث الشفاهي معه حتى الخمه بقوة البرهان واستمياله مع انصاره لجانب الحق بواسطة اللسان فقط ولكن حيث ان تعاليمه هذه نشرت مكتوبة ومال الناس لتصديقها والاقتناع بصحتها كانه من الجهة الاخرى يوجد بعد معلمين يذهبون الى ان الناموس والانبياء لا قيمة لهم ثم تدرجوا بعد ذلك الى نبذ الانجيل والازدراء برسائل الرسل واذاعوا ان تعاليم نيبوس هذه انما هي سر غامض لا يتسنى لاحد حله مع ما فيه من الاهمية وهم يجهلون كل ذلك ولا يفهمون شيئاً عن الحقائق المسيحية ولا يدركون معنى ظهور مخلصنا الثاني ظهوراً آلهياً مجيداً ولا يفهمون كيف اننا نقوم في يوم القيامة اذ نتغير من شكلنا الحاضر ونلبس صورة الله حيث نلتقي معه في السحب عند ظهوره ليدين الاحياء والاموات الامر الذي لا يدركه اولئك المتفلسفين زوراً بل هم يعتقدون بملك ارضي زائل لا نتيجة له ولا فائدة منه ولا هو من التعاليم التي تؤمن بها الكنيسة — فلاجل هذه الاسباب جميعها الجأتني الضرورة ان اناقش اخينا نيبوس كما لو كان حياً وارد عليه كتابة حتى ازيل ما علق بالاذهان من تعاليم تافهة وخرافات مضلة لا ثمرة منها »

ولم يقتصر البطريرك ديونيشيوس في كتابه السالف ذكره على الرد على نيبوس بل افاض في البحث في سفر الرؤيا بحثاً دقيقاً وأبان الخطاء الكبير في فهم هذا السفر بمعناه الحرفي وقال انه عبارة عن رموز ونبوات تم بعضها وسوف يتم البعض الآخر ثم أورد البراهين والادلة على ان كاتب هذا السفر ليس يوحنا الرسول ولكنه قال صريحاً ان الذي كتبه هو شخص اسمه يوحنا ولا ينكر انه سفر موحى به من الله وان الذي

سطره هو رجل أوحي اليه من الروح القدس . ثم قال انه يمكن ان يكون كاتب انجيل يوحنا هو ذاته الذي كتب سفر الرؤيا الا انه استدرك وقال « اما انا فلا يمكني ان ابدي رأياً خصوصياً عن هذا السفر كأن يكون منع قرائه والتحريض على عدم البحث فيه ما دام اكثر الاخوة المسيحيين يجلونه كثيراً ويميلون لمطالعته وفهم رموزه ميلا ظاهراً »

فما تقدم يتضح للقاريء الخطة التي سار عليها البطريرك ديونيشيوس في الانتقاد والروح الذي استعمله في تفنيد الاراء المغايرة للتعاليم المسيحية وذلك انه كان يفحم كلامه بالحجة والبرهان شأن الباحث المدقق والمصلح الحقيقي لا بالمهاترة والبهتان وهو دأب قليل البضاعة ضعيف القوى العقلية الذي يفاخر ويهاتر بكلام مبرقش لا فائدة منه ان يريد الفائدة ولا حجة فيه لمن يهمه البرهان . الا ان ديونيشيوس لم يكن لديه من مشاغل وظيفته وقت يساعده على الاشتغال في هذه المؤلفات والردود بل ان رسائله الرعوية التي كان يبعث بها للاساقفة والكهنة والشمامسة واعظاً وحاثاً على العمل في كرم الرب لم تدع له فرصة للاشتغال بغيرها بل كان بالكاد يكتبها ويرسلها اذا ساعدته الظروف على ارسالها في هاتيك الايام الصعبة التي كانت اذا خمدت نار الاضطهاد قليلا التهبت نار الحروب الاهلية طويلاً بين اولئك الامبراطرة الذين كانوا يتخاصمون ويتخانقون على العرش الروماني حتى ان الامن والسلم لم يكن لهما سبيلا في هذه البلاد ففي هذا الحين وضع مكريانيوس المصري الوثني التاج الملوكي على رأسه

وسعى ليضع كل المملكة تحت سلطته ويضمها تحت لوائه . الا انه كان من الصعب على مصر التي اصبحت الآن مسيحية ان تقبل هذا الرجل حاكماً عليها ولو انه من لحمها ودمها ولكنه اظهر عداوة مرة لابنائها المسيحيين وناصبهم الشر والعدوان من قبل الآن . وقد شعر بذلك ايميليانوس الوالي فقام في وجه مكريانوس هذا وفي وجه غالينوس الذي كان يعيش في روميه عيشة مصرف خامل فانتحل ايميليانوس لنفسه اسم « اسكندر » وحكم مصر مدة قصيرة اظهر فيها كل انواع الشدة والعنف ولكنه جال يفتقد احوال البلاد وطرد منها البرابرة الذين جاؤها من الجنوب وارجعهم القهقرى الى السودان بشجاعة وسرعة لم يجاروا بهما من قبل . ثم انه ابطل الجزية التي كانت ترسل الى روميه فتفاءلت مصر خيراً باعادة استقلالها الذي فقدته من قديم . ولم يزهر غرس ايميليانوس حتى جاءه تيودوتس قائد جيوش غالينوس وشن عليه الغارة في الاسكندريه قاصداً بذلك استخلاص المملكة الرومانية في يده فاسرع ايميليانوس وتحصن في حي بروخيوم حيث القصر الامبراطوري وحاصره تيودوتس حصاراً شديداً بعد ان استحوذ على ما بقي من المدينه . وفي ذلك الوقت كتب البطريرك ديونيشيوس كتاباً الى هيراكس أحد اساقفة مصر يصف فيه الحالة وصفاً دقيقاً حيث قال :—

« من الامور التي توجب العجب والاندهاش انه كثيراً ما قامت في وجهي صعوبات جمة فيما يختص بارسال رسائلي الى الانحاء النائية

بينما قد اصبحت الآن في مركز يحتم علي ان احتاط لنفسي من الغوائل واتدبر في امر به امنع الشر الذي يحدق بي في هذه الايام السوداء كما انني اشعر بضرورة قصوى في ان ارسل مكاتيب دينية ومواعظ وجوابات ودية الى اخوتي في الرب الذين احبهم كنفسي واعزهم كحدقة عيني الذين هم اعضاء الكنيسة واركانها ولكنني احترت في كيف ابث بهذه الرسائل اليهم اذ انه يسهل على المرء ان يجوب البلاد من مشرقها الى مغربها ويطوف سهولها وفيافيها ولكن يشق عليه جداً ان يسير في احد شوارع الاسكندرية او ان يخطو خطوة فيها في هذه الايام التي اشتد فيها الحصار حتى اصبحت المدينة خربة وصار يعسر المرور فيها اكثر من خراب تلك الصحراء المقفرة التي سار فيها بنو اسرائيل وعبروها في مدة اربعين سنة بسهولة لا نشعر بها نحن الآن في الاسكندريه ومن الغريب ان البحر قام للاشتراك في هذه المصائب فانك ترى ميناء الاسكندريه التي كانت صقيلة كالمرأة والبحر ساكن هادىء واذا به الآن يعج ويهدو ويعلو وينخفض فاشبه بذلك البحر الاحمر الذي انقسم الى شطرين وقامت مياهه كالاسوار المنيعة على الجانبين الى ان عبر فيه شعب الله وتبعهم المصريون فاطبق عليهم وغرقوا في لجه وراحوا في غمراته . ولم يكن وجه الشبه بين بحرنا والبحر الاحمر انقسامهما وهديرهما فقط بل ان بحرنا اشبه هذا في اللون ايضاً وامست مياهه حمراء كالدم لكثرة ما سال فيها من دماء المذبوحين الذين فارقوا حياتهم بالقرب منه حتى

ان النهر [1] الذي كانت امواجه تفيض وتكاد تغمر المدينة اصبح الآن وهو انشف من صحراء محرقة وأقفر من القفر الذي عطش فيه بنو اسرائيل حتى اوشك ان يقتلهم الظمأ عندما تزمروا على موسى فقام وضرب لهم الصخرة فقاضت منها المياه زلالا بقوة الله القوي الذي صنع العجائب والمعجزات في كل دور وجيل . فهذا النهر الناشف المقفر قد يفيض احياناً ويطفو على البلاد المجاورة له حتى يخال الناظر ان طوفان نوح الذي غمر العالم قديماً ووعد الله بعدم اتيانه ثانية قد عاد الآن وملأ الشوارع والحقول ولكن نهرنا هذا يفيض وقد اختلط ماؤه بدماء القتلى واشلاء الغرقى وجثثهم كما حدث قديماً في ايام فرعون عند ما ضرب الله المصريين على يد موسى فحول نهرهم دماً احمر وانتن النهر ومات كل ما فيه من السمك . فاذا كانت الماء قد صارت كما وصفت لك من الفساد والقذارة فمن يطهرها وينظفها وهي واسطة التطهير والتنظيف وهل يستطيع هذا البحر المحيط العجاج ان يجرف في سبيله كل قذر اعترى هذا النهر الرائق الصافي الذي اصبح الآن مر المذاق ؟ وهل ينتظر ان ذلك النهر العظيم الذي كان ينبع من جنة عدن وينقسم الى اربع رؤوس منها نهر جيحون يزيل هذا الماء الملوث الذي تعافه النفس ؟ ثم متى يصبح هذا الهواء نقياً وذلك النسيم العليل بليلا وقد فسد وصار يخنق الناس ويضيق الانفاس لكثرة ما امتزج به من البخار الممتلىء بالغازات السامة المميتة؟ فلقد

(١) ان المقصود بالنهر هو ترعة كانت متصلة بالاسكندرية اما نهر النيل فلم يكن يصب عندها في ذلك العهد

كثرت الروائح الفاسدة التي يستنشقها الانسان وثار الغبار الذي يعمي ويصم بواسطة الارياح والزوابع التي تهب من ناحية البحر وخيم الضباب فوق الماء واليابسة فحول نور النهار ظلاماً دامساً فصار يظن المرء ان جثث الموتى تتحرك سائرة معنا اوانها تحللت الى ذرات دقيقة وامتزجت بكل شيء حولنا وان دماءهم تبخرت وامتزجت بالهواء ثم تكاثفت وسقطت علينا كالطل والندى وعليه فلم يمض زمن حتى فني كثيرون من سكان هذه المدينة العظيمة (اي الاسكندرية) وصار الفناء يتدرج من الاطفال الرضع الى الشيوخ الذين وقفوا على حافة الابدية قبل الآن وعم القوي والضعيف فلم يبق ولم يذر . وقد ترى هؤلاء القساة العتاة يشاهدون الجنس الادمي يفنى ويضمحل وينظرون اخوانهم في الانسانية يتمشى فيهم الهلاك تمشي النار في الهشيم لكثرة عوامل التدمير والخراب التي شيدتها ايديهم ولكن عواطفهم لا تحس ولا تشعر كأن قلوبهم قدت من صخر صلد »

وقد ورد ذكر هذا الحصار والدمار في الرسالة (١) التي كان يكتبها ديونيشيوس لتتلى في عيد الفصح كما كانت العادة في تلك الايام .

(١) ان رسالة عيد الفصح هذه كانت عبارة عن بيدة عمومية يصدرها بابا الاسكندرية قبل العيد بقليل وترسل لجميع الكنائس المسيحية عموماً والمصرية خصوصاً في اليوم الذي يقع فيه عيد القيامة من كل سنة . وكان لهذه الرسائل اهمية عظمى حتى عند غير المسيحيين لما تضمنته من الحساب الفلكي الدقيق الذي جرى عليه المصريون القدماء بالضبط ولذلك عهد بكتابتها الى بطريرك الكنيسة القبطية المصرية وحده لعلمه بهذا الحساب التاريخي علما تاماً . وكانت فاتحة هذه الرسائل موعظة بليغة تقراء في الكنيسة جهاراً

اما تاريخ هذه الرسالة التي نحن بصددها فكان سنة ٢٦٤ ب.م وهاك مغزاها :—

ان الوقت الحاضر اصبح كغيره في الاوقات الغابرة اذ يعسر فيه على الكثيرين من المسيحيين ان يؤدوا فريضة عيد الفصح وسيان عندنا اوقات الحزن والنم وايام الفرح والسرور التي لا يكاد يراها احد ولو في المنام لكثرة توالي المصائب وتتابع النكبات حتى اصبح الانسان لا يقع نظره الا على عيون تدمع وقلوب تفجع ومآق تسيل على الخدود بدل الدمع السخين الذي تشتق له الاعين حزناً على اناس اتقياء كثيرين ماتوا ودرجوا الى العالم الباقي . واذا مررت الآن في المدينة لسمعت التنهدات والزفرات يكاد القلب يتفطر معها اسفاً على اقوام مشرفين على الهلاك ينظرون ابواب القبور مفتوحة امامهم تكاد تبتلعهم قبلما تفارق ارواحهم الاجساد حتى اصبحنا في زمن اشبه بالزمن الذي مات فيه كل بكر في ارض مصر على يد موسى فلم يخل بيت من البكاء والعويل لانه يوجد ميت على الاقل في كل منزل . وكنت اتمنى لو ان يكون هذا كل البلاء ويقف المصاب عند هذا الحد مع ما يسبقه من اهوال تشيب لها النواصي وتصطك منها الركب بل زادوا في انهم طردونا طرداً واقصونا الى اماكن بعيدة ثم اخذوا يضطهدوننا حتى اماتوا اكثرنا ومع ذلك فلا نزال نعيد العيد بكل احتفاء واحتفال . وكلما كان اضطهادنا شديداً كلما كان عيدنا بهياً بهيجاً . وكان المكان الذي نذوق فيه اشد العذابات لابد

وان نقيم فيه اهم الحفلات الدينية ولم نترك حقلا ولا مغارة ولا سفينة ولا خاناً ولا سجناً الا وعملنا فيه جمعية يذكر فيها اسم الرب وينادي بكلمته جهاراً . اما اهم الاعياد واكثرها مجلبة للفرح والسرور فهو العيد الذي يحتفل به جماعة الشهداء الابرار الآن في السماء حيث يرأس حفلتهم الرب يسوع نفسه حيث لا الم ولا تعب ولا جوع ولا شيء من مصائب هذه الحياه وبلاياها

وقد اعقب هذه النكبات حرب تلاها جوع وسغب اصابنا نحن والوثنيين على السواء ولكن الضرر الاكثر لحق بالفقراء المساكين الذين اثر فينا حالهم تأثيراً شديداً فكنا نواسيهم ونشاطر كل من انتابته مصيبة في بلاياه ونرثي لامرهم ونعطف عليهم عطفاً ينتج من قلوب رقيقة واحساسات مسيحية شريفة تتأثر لمصاب بني البشر الذين هم اخوتنا في الانسانية . ثم جاءت بعد كل هذه هدنة قصيرة منحها لنا الرب يسوع المسيح تمتعنا فيها بشيء من الراحة والفرح ولم تلبث طويلا على هذه الحالة حتى دهمنا وباء فتاك مسنا مساً ولكنه فتك بالوثنيين فتكا ذريعاً

فلما قدم هذا الداء الوبيل بخيله ورجله ظهرت احساسات الاخوة المسيحيين نحو القوم المصابين وبانت نواياهم الحسنة وعواطفهم الحية مع كل مريض مدنف حتى انهم لم يخشوا شر الداء ولم يخافوا على انفسهم من الهلاك بل عمدوا الى تمريض الضعفاء وسد حاجات المعوزين بهمة شماء ومروءة علياء وهي اعمال كانت تضيء في هذه الايام السوداء كما

يضيء مصباح لامع في حالك الظلام ويجوره فكانوا يداوون المرض بالادوية الروحية اولاحتى اذا فارقواهذه الحياة الدنيا انطلقوا الى الابدية وفي قلوبهم رجاء لا يفنى بالحياة الآتية . وكان كثيرون من هؤلاء الاخوة الذين يخدمون المرضى يموتون معهم بعد ان يصابوا بعدوى امراضهم . نعم كانوا يموتون فرحين مسرورين لموت هورقاد موقت تعقبه حياة ابدية سعيدة . وكانت العدوى تنتقل من المصاب الى الصحيح لان هذا كان يستخرج مصل الداء من ذلك بواسطة مصه (١) فكانهم كانوا يحملون اعباء الامراض من على اعناق الاخرين ولذلك مات الكثير من المسيحيين فداء لاخوانهم المرضى وهوعمل يظهر منه الفرق الكبير بين المسيحي الحقيقي الذي يضع نفسه عن الاخرين كما فعل سيده قبله وبين اولئك الذين يظهرون انفسهم في مظهر المحبين المخلصين بواسطة احساس غير حساس يبدونه في آداب باطلة وتحيات فارغة ومودة عقيمة ولكن اذا جاء وقت الشدة فزعوا من اصدقائهم وابتعدوا عنهم اوقدموهم قربانا لاغراضهم اذا كان في تقدمتهم ما يجلب بعض النفع او يزيل شيئاً من الضرر . ففي زمن هذا الوباء انتقل الكثيرون من خيرة الاخوة

(١) هذا يدل على ان عملية ايصال الهواء الى الرئتين في حالة مرض الدفتيريا كانت معروفة عند المصريين في ذاك الوقت . اما غرضهم من مص المصل فهو تطهير قناة الهواء (اوقصبة الرئة) حتى يسهل مرور الهواء فيها فلا يختنق المصاب وهي ذات الطريقة المستعملة في ايامنا الحاضرة . ولا ريب في انها عملية خطرة مات فيها كثير من الاطباء الانكليز

وافاضل الامة وذهبوا الى الدار الباقية شهداء الخدمة المسيحية وكان فيهم القسوس ومشائخ الكنيسة وشمامستها وغيرهم من الشعب الذين اشتهروا بحسن السيرة وطيب السمعة فالموت بهذه الكيفية وما اقترن به من شفقة عميقة وايمان حار وغيرة تقوية ومحبة مخلصة لا يقل في الاهمية عن الاستشهاد الذي يحدث في زمن الاضطهادات . والذين يموتون بالطريقة المار ذكرها كانوا يكرمون ويحتفل بموتهم احتفالا باهراً اذ كانوا يحملون على الاكف ويوضعون فوق الرؤوس بعد ان تنظف عيونهم وتكفكف كل دمعة ذرفت منهاساعة الخشرجة وتقفل افواههم ويكفنوهم باحسن الاكفان واثمنها ومن ثم يدفنونهم باجلال واكرام وهكذا يودع الواحد منهم اخاه ويعود فلا يلبث طويلا حتى يودعه غيره على الطريقة التي اتبعها هو مع سابقه . اما الوثنيون فكانوا على الضد من ذلك ولا عجب في هذا ولا غرابة ما دامت الاحساسات المسيحيه والعواطف القوية لم تجد لها طريقاً للقلب ولم تعمل فيه عملها المعروف فكان اولئك الوثنيون عند ما يشعرون بان احدهم مريض يبتعدون عنه ويتنحون حتى عن اعز اصدقائهم ومحبيهم وقد بلغت بهم القساوة مبلغاً عظيما حتى كانوا يطرحون مرضاهم في الازقة والشوارع وهم بين حي وميت فاذا فارق المريض هذه الدار رموا به في عرض الفلاء دون ان يواروه التراب ومن غير ان تظهر على سماتهم ادني المظاهر التي تدل على التأثير والاحساس ولو احتاطت بهم كل العوامل المؤثرة الفعالة »

وقد تلطفت مصائب هذا الحصار كثيراً وخف بعض الشيء من بلاياه المريعة وذلك بواسطة سلوك الكهنة المسيحيين سلوكا يحمد ويمدح نخص منهم بالذكر يوساب واناطوليس اللذان تعاقبا بعد ذلك على اسقفية لاودكية . وقد قال يوسيفوس المؤرخ في عرض كلامه عن اناطوليس ما نصه :—

«قد اسند الكثيرون اكثر الاعمال الخطيرة التي تمت اثناء حصار بروخيوم (جزء من الاسكندرية) الي اناطوليس وذلك لان جميع الموظفين على اختلاف درجاتهم كانوا يجلونه ويحترمونه احتراما زائداً وهو قول لا يحتمل الشك او الريب واليك مثال على صحة ذلك . لما تفذ الزاد في ايام الحصار وندر وجود الخبز في المدينة لدرجة رضي فيها الناس ان يسلموا انفسهم لاعدائهم الادميين من ان يسقطوا بين براثن عدو قاس هو الجوع خطر على بال اناطوليس فكر حميد رأى الخير كله في انفاذه وتفصيل ذلك ان نصف المدينة الثاني كان على وداد تام مع الرومان ولذلك لم يقم عليه حصار ولم ينصب نحوه متراس فلذلك ارسل اناطوليس الى يوساب الذي كان مقيما في الجزء الغير المحاصر (وكان يوساب حينئذ موجوداً في الاسكندريه قبل ان يذهب الى سوريا ويسام اسقفاً في لاودكية ذائع الصيت نافذ الكلمة حتى عند قائد الجيوش الرومانية) واخبره انهم اوشكوا على التلف من جرى الجوع والسغب . فلما سمع يوساب هذا الخبر التمس من القائد الروماني ان يمنح الامان لجميع الذين

يفرون من وجه العدو ويلجأون اليه وعد هذه المنحة اعظم جميل واكبر معروف يعمله معه . فلما اجاب القائد طلبه هذا ارسل يعلم اناطوليس به في الحال وعليه جمع هذا مجلس الشيوخ الاسكندري وعرض عليه الامر القاضي بان كل الناس سواء كانوا رجالا او نساء خالين من خدمة الجيش عليهم المبادرة بالخروج من المدينة ما دام لا يوجد أمل لهم بالنجاة من عوامل الهلاك لو هم ظلوا قاعدين في مكانهم خصوصاً وان الجوع يتهددهم بالفناء اذا انتظروا استتباب الاحوال وحسن المآل . فصادق المجلس على هذا الرأي الصائب واتفق مع يوساب على ان الذين يهربون اولا هم اعضاء الكنيسة المسيحية ثم الشيوخ الضعفاء الذين لا نصير لهم ولا مجير

ولم يقتصر الامر على هؤلاء فقط بل ان كثيرين من رجال المدينة تزيوا بزي النساء وخرجوا منها بهذه الحيلة تحت جنح الظلام ومروا على معسكر الرومانيين فلم يميزهم احد ثم جاؤا الى يوساب مع من جاء فاقبل الجميع بكل ترحاب وتلطف واخذ يؤاسي الحزين منهم كأنه اب شفوق ويضمد جراح كل جريح منهم كطبيب ماهر وبالاجمال فقد رفع عن الكثيرين اعباء مصائب واهوال شديدة تجرعوا غصصها اثناء هذا الحصار »

وقد ألقت الحرب اوزارها في مصر عند ما ألقي القائد الروماني القبض على اميليانوس وقتله فاستراحت هذه البلاد الاسيفة من هول

الطعن والضرب ولكنها لم تسترح من بلايا الطاعون الذي كان لا يزال يفتك في اهليها فتكاً شديداً . اما البطريرك فكان لم يزل مشتغلاً حينئذ بالمباحثات والتآليف

وقد اتهم البطريرك ديونشيوس بما اتهم به غيره من الميل الى الهرطقة والجنوح الى البدع وهي تهمة اصابت اكثر أعاظم رجال الكنيسة المسيحية واقيالها سواء في حياتهم او بعد موتهم وسواء بحق او بغير حق . وكان من حسن حظ ديونيشيوس ان التهمة وجهت اليه وهو بعد على قيد الحياة ولذلك قدر على دحضها وتبرئة نفسه بطريقة دلت على مقدرته في استخراج الحجج القوية واتضاعه في المناقشة والجدال مما زاد في شرفه ورفع مكانته كثيراً حتى دعي رئيس البطاركة وكبير الباباوات في العالم كله . وقد استاء بعض من شعبه منه لعبارات قاسية وردت له في جواب أرسله الى أساقفة مقاطعة بنتابوليس قصد منه التوفيق بينهم في مسائل اختلفوا عليها وايقاف سير بدعة جديدة كانت على وشك الظهور . اما اهل هذه المقاطعة فأتوا امراً مغايراً للأصول بالمرة اذ عوضاً عن ان يردوا على بطريركهم ويجادلوه بالتي هي أحسن اغراهم بعض الدخلاء من الرومانيين وحرضوهم على الشر والشقاق فكتبوا الى ديونيشيوس أسقف رومية كتاباً فيه يرمون بطريركهم بالهرطقة والبدعة وكان هذا الاسقف سادس أسقف جلس على الكرسي الروماني اثناء جلوس البطريرك ديونيشيوس على

الاريكة القبطية ولذلك كان صاحبنا الروماني شابا في مقتبل عمره قليل الخبرة ضيق المعرفة بالنسبة الى البطريرك المصري الذي كان لا يساويه أحد في العلم والاختبار الكثير . فسار ديونيشيوس الروماني سير الاعتساف وارتكب متن الشطط في انه شكل مجمعاً وقتياً وحكم فيه بالحرمان على ذنيشيوس الاسكندري وكتب اليه يعلمه بنتيجة هذا الحكم ويسأله عما اذا كان لديه شيء يقوله دفاعاً عن نفسه مما عده بابا الاسكندرية هذا اهانة وافتراء الا ان تقواه وتمسكه بعرى الديانة المسيحية منعاه عن مقابلة الشر بالشر وعوضاً عن ان يقابل شعب تلك الابرشية المتمرد بما يستحقه من اللوم والسخط وبدلا من ان يحتقر ما كتبه له زميله الروماني ويضرب به عرض الحائط لما فيه من القحة والبذاءة . عمد الى قلمه وكتب رداً طويلاً كان آية في البلاغة وحسن البيان شرح فيه كيف ان اعداءه أبدلوا كلماته وحولوها عن معناها الاصلي بقلب مبناها لغاية في النفس حتى صارت تؤول تأويلاً يغاير الحقيقة ثم قال انه تجنب البحث في مسألة « الاستحالة » ولم يذكر شيئاً عنها لانه لم يقف لها على اصل في الكتاب المقدس وان الذي يراجع كلامه الاصلي يقتنع بصحة ما كتبه لانه يجده غير محرّف او مبدل وانه يأسف لعدم امكانه ارسال نسخة منه الى ديونيشيوس الروماني

فبواسطة حكمة ديونيشيوس الاسكندري ورصانته خمدت سورة شقاق كان يمكن ان يستفحل امره فيضر بالكنيسة ضرراً بليغاً كما ان

هذا الاعتدال زاد اعتبار هذا البطريرك الحكيم في أعين الناس عن ذي قبل وأوجد له مهابة كبرى في النفوس

وحدث انه في آخر سني حياة ديونيشيوس هذا دعاه مجمع انطاكية لحضور احدى جلساته حيث حكم بحرمان بولس من ساموساتا (ولا حاجة بنا لشرح حكايته هنا لعدم اهميتها) ولكن ديونيشيوس لم يحضر هذا المجمع معتذراً بضعفه وكبر سنه فكتب لهم رأيه في هذا الشأن وارسله اليهم. وقبل ان يبت المجمع المذكور حكماً في قضية بولس هذا نام ذلك البطريرك العظيم في الرب واستراح من اتعاب جمة ودخل الى فرح سيده لانه كان اميناً في القليل فاقامه على الكثير فطوبى له

الفصل العاشر

مار آمون ومار انطونيوس. سنة ٢٦٨ ب.م

في سنة ٢٦٨ ب.م ورد غالينوس الامبراطور حتفه في ميلان (بايطاليا) في حرب عوان مع خصم آخر كان يطالب بسرير الملك. وبعد موته حدث الالتباس المعتاد حدوثه عمن يخلفه فنشأ عن ذلك اضطراب جديد جر شراً على مصر الشقية وانتهى الامر أخيراً بان رقي كلوديوس العرش الامبراطوري في أوروبا وأصبح اسمه يسبك على النقود لمدة ثلاث سنين ولكنه لم يحكم مصر الا بالاسم فقط لان المصريين اعتادوا عدم الخضوع لاي سلطة أجنبية بطيب خاطر الا ان يكون لليونان وعليه يحتمل انهم يكونون قد التجأوا الى زينب (أوذنوبيا) ملكة تدمر وأرملة

أوذيناثوس وهي الملكة التي جمالها الفتان وشهرتها الواسعة ابقيا ذكراً للمملكة تدمر (التي يسميها الافرنج بالميرا أو مملكة النخل) وطلبوا انها تستولي على مصر وتضمها تحت لوائها. وكانت هذه الملكة تزعم انها سليلة كليوبترا الشهيرة ولذلك رأت ان لها حقاً لان تملك مملكة آبائها

ومما اشتهرت به هذه الملكة ان مجلسها كان يضم كثيرين من العلماء وفطاحل الرجال الذين رضعوا أفاويق العلوم في مدارس الاسكندرية المعروفة وكان أعظم هؤلاء الافاضل شهرة العلامة لونجينوس. أما كون زينب من سلالة كليوبترا المصرية فغير صحيح بل يغلب على الظن انها رومانية الاصل اذ لا يوجد دليل على وجود صلة رحم بينها وبين كليوبترا كما كانت تزعم الا ان يكون تشابه الاثنين في الجمال الباهر والشجاعة الفائقة وفي آخرتهما السوداء. ولما جاءت زينب لاخذ مصر امتلك جيشها الاسكندرية أولاً ثم سار جنوباً في وادي النيل تخيم فوقه أعلام النصر ويرافقه الظفر في كل غزواته وهو تحت قيادة مصري باسل اسمه تنياجينس الذي سار في طليعة المحاربين. وبعد ان افتتح هذا الجيش البلاد المصرية عاد راجعاً فالتقى في طريقه بقائد روماني يقود جيشاً يقصد به مقاتلة ذلك الجيش الا ان خبرة تنياجينس باحوال البلاد ومسالكها ساعدته في قهر عدوه وجعله يعود ناكصاً على أعقابه راضياً من الغنيمة بالاياب

ولم يدم حكم التدمريين طويلا في مصر لان أوريليانوس الروماني

حارب زينب وأخذها أسيرة ودمر مدينة تدمر بعد حصار طويل . ولكن المصريين لم يخضعوا لحكم الرومان ولم يرضخوا لسلطتهم بدون جهاد وقتال اذ يؤخذ من بعض المصادر ان ملكين كانا يتنازعان السلطة في مصر عند ملك أوريليانيوس لها وقد قاوماه كثيراً وكانت النتيجة ان مصر عادت فخضعت للسيطرة الرومانية وسلمت زمامها لاوريليانوس الذي لم يمكث فيها طويلا بل قفل راجعاً الى رومية بعد ان عهد بادارة أمور مصر الى وال قادر اسمه بروبوس

أما عن المسيحيين في مدة حكم زينب لمصر فقد عاشوا في صفاء ورفاء وأعطيت لهم الحرية الدينية التامة ولكنهم شاطروا باقي مواطنيهم في قلاقل الحروب الاهلية ومتاعبها . وقد جلس على الكرسي البطريركي بعد ديونيشيوس البطريرك مكسيموس الذي لا يعرف عنه شيء سوى انه اشترك في الحكم الصادر على بولس الساموساتي الذي مرّ ذكره بك كما انه بدأ في مدته اثنان من مشاهير المصريين بان عاشا أولا عيشة الزهد والتنسك ثم أفرطا فيها كثيراً الى ان تخطياها الى التبتل وانكار الذات . أما هذان الراهبان فكانا مارانطونيوس ومار آمون الذي لم يشتهر أمره كثيراً ولكنه كان محبوباً أكثر من غيره عند عارفيه وهو المؤسس لدير النطرون (بالبحيرة) ولو ان القديس نوثونيوس كان قد اتخذ هذا المكان دار اقامة له قبل هذا العهد بنحو جيل

أما انطونيوس فولد في بلدة تسمى « الكوم » في الصعيد من والدين

مسيحيين مثريين ولم يخلق فيه ميل للعلم . ومع انه لم يكن أمياً حقاً كما يظن بعض المؤرخين الا انه لم يتعلم من اللغات الاجنبية شيئاً ولم يكن يعرف سوى لغته (القبطي الصعيدي) التي لم تكن دارجة بين الطبقات العليا في مصر . وقد مات والداه وهو في الثامنة من عمره فاصبح تحت رعاية أخته وعنايتها . والذي يبحث في اخلاقه وطباعه يجده شبيهاً باوريجانوس من وجه الغيرة الدينية والميل الى انكار الذات الا ان ظروفه لم تكن كظروف أوريجانوس فان أصحابه هنا الكثيرين ومعارفه الواسعة وعلمه الصحيح كل هذه صدته عن عيشة الوحدة والانفراد والبقاء في عالم الاحياء لاستعمال مواهبه في ماهو نافع ومفيد فكراً وعملاً . أما انطونيوس فمع انه في نشأته لم يكن ميالا كثيراً أو مفكراً في الزهد والرهبنة الا انه بعد موت والديه بنحو ستة شهور (في سنة ٢٦٨ ب.م) كان قد ذهب الى كنيسة ما لسماع الوعظ وكان الموضوع يومئذ قول المسيح للشاب الغني « ان أردت أن تكون كاملاً فاذهب وبع أملاكك واعط الفقراء فيكون لك كنز في السماء وتعال اتبعني » (مت ١٩ : ٢١) فلما سمع صاحبنا انطونيوس هذا لم يمض حزيناً كما مضى ذلك الشاب الغني بل صمم على اتمام هذا الامر حرفياً فذهب وباع كل أملاكه ولم يبق منها سوى جزء قليل خصه باخته . وحدث في غد ذلك اليوم انه ذهب الى الكنيسة كعادته فسمع قول المخلص « لا تهتموا للغد » فنخسه ضميره وظن ان هذه الآية توبخ له على ما أبقاه لاخته من العقار فباع هذا

الجزء الصغير فوراً وترك أخته في عهدة امرأة مسيحية في بلدته ووزع كل ما يمتلكه من حطام الدنيا على الفقراء والمعوزين وهام على وجهه وهو حافي الاقدام لا أنيس له ولا رفيق وعزم أن يعيش عيشة جهاد مع نفسه وأن يحارب جسده ويقمعه وينزع عنه كل خلة أو سجية تغيظ الله وتخالف أوامره وهذا عمل أتاه أناس كثيرون في كل الاعصر ظناً منهم أنه يقربهم الى الله جلّ وعلا. وبعد أن انتقل انطونيوس من مكان لاخر أوجد نفسه في صرح متهدم واقع على شاطىء النيل وامتنع عن النظر في وجه آدمي أيا كان الا انه كان يعظ من وراء الحجاب ويخطب في جماعة رعاة القطعان الذين كانوا يحترمونه احتراماً ناتجاً عن اعتقادات خرافية من نحوه وكانوا يتوافدون لسماع العبارات الحماسية التي كان يتفوه بها هذا الزاهد المختفي ولكنهم قلما كانوا يفهمونها. ولطالما جاؤوا اليه بخبز من بلادهم كثير وبشيء وافر من الكعك المسطح (قرص) فكان يبقيها عنده أشهراً طويلة حتى تستحجر ولا تلين الا بعد أن توضع وقتاً غير قصير في الماء. ومن ثم يسهل مضغها وازدرادها كما يفعل الفلاح المصري اليوم في هذه الايام. ولأنه عاش على هذه الصورة فقد عزيت اليه أمور واشاعات تجسمت فيما بعد وتكبرت حتى صارت خرافات لا يقبلها العقل وأصبح يتناقلها الآن كثيرون من ذوي العقول الضيقة. ففي هذا المكان قضى انطونيوس عشرين عاما بعيداً عن أعين الناس ولكن صيته وشهرته ملأتا الآفاق

أما مارآمون فلا يعرف مسقط رأسه تماماً ولكنه لا يبعد كثيراً عن مدينة الاسكندرية. وهو كزميله انطونيوس ولد من أبوين موسرين وتيتم منهما وهو بعد يافع. ويؤخذ من اسمه انه مصري قح ومع ان كثيرين من المصريين الاصليين اطلقت عليهم اسماء يونانية وقت عمادهم الا انه لم يكن يسمح ليوناني مسيحي أو لدخيل أن يسمي ابنه باسم اله مصري كآمون أو غيره. ولما دخل آمون دور الشبوبية (غالباً بين سنتي ٢٦٥ — ٢٧٠ ب.م) رغب في عيشة الزهد ومال الى الرهبنة الا ان عمه وولي أمره رفضا طلبه هذا وأغرياه بضرورة عقد خطوبته على آنسة يعرفانها ذات متاع وعقار قد يمكن أن يوسع ثروته بها. ويظهر من قرائن الاحوال ان آمون كان لا يزال الى هذا الحين تحت رعاية عمه ولا يسعه الخروج من طاعته ولذلك شرع حينئذ في مخاطبة هذه الفتاة كما أمره عمه وكانت النتيجة انه أوجد فيها الميل الذي عنده وزرع في فكرها الرغبة في عيشة الزهد وتكريس النفس ومن ثم اتفق الشاب والشابة على ما ظناه خيراً لهما وابقى. فتزوجا بعضهما على شرط اتفقا عليه سراً هو ان يعيشا معاً كاخ واخت لا كزوج وزوجة وقد ظلا على هذه الحالة عدة سنين وهما يحافظان على شروطها بعفة وامانة. وقد اختلف المؤرخون فيما اذا كان الاثنان قد عكفا على الزهد وذهبا الى الجبل حالا بعد زواجهما أم لا ولكن الذي يقرب من الحقيقة على كلتا الحالتين انهما كانا ينفقان على انفسهما من مالهما الخصوصي وعاشا بسعة من ايراد

املاكهما . وبعد ردهة من الزمن ظن آمون انه ليس في غبطة تامة او انه لم يعد يستطيع العزوبية التي فرضها على نفسه وبجانبه واحدة من بنات حواء فاستأذن امرأته هذه وانصرف الى وادي النطرون حيث اقتفى أثره جم غفير من ارباب الغيرة واصحاب الميل الى هذا الانفراد. ومعهم مكاريوس الشهير الذي نال الشهرة التي كانت لآمون رئيسه ولم تمض على هذا الحال ثمانون حولاً حتى أصبح وادي النطرون يحتوي على نحو خمسين ديراً او تزيد كما ذكر ذلك روفينوس في تاريخه المعروف . ولم يكن كل سكان وادي النطرون في ذلك العهد من الرهبان والنساك بل ان كثيرين من عامة الشعب سكنوا قبلهم ذلك لان السهول القريبة منه لم تكن جدباء بالمرة بل ان بحيرات الملح كانت تحيط به كما في وقتنا الحاضر وحولها شيء من الخضرة النضرة كما ان الماء لم يكن شحيحاً هنالك بل ان الذي يحفر آباراً يسهل عليه استخراج ماء زلال يشرب منها ويروي بها ارضاً تخرج نباتاً طيباً . اما آمون فقد استمال ما شاهده من رسوب النطرون هنالك وفكر في ايجاد طريقة ينتفع بها في تشغيل الرجال الذين تبعوه في استخراجه . ولم يك طويلاً حتى احتشد كثيرون من سكان مدن وقرى الريف التي على مسافة ٣٠ او ٣٥ ميلا من الدير واتفقوا جماعات الفوا قوافل منتظمة وساروا ليجيئوا بالنطرون الذي كان يستخرجه آمون ورجاله وكانوا يبيعونه في اسواق مصر ويتجرون به . وحدث ان شاباً اسمه مكاريوس سار مع قافلة

من هاتيك القوافل الى وادي النطرون فلم يكد يلقي عصا الترحال حتى جاش صدره داخله غيرة منه عند ما رأى جماعة النساك والزهاد يشتغلون شغلا شاقاً في استخراج النطرون . ولم يكن مكاريوس يظن انه محتم عليه البقاء مع آمون ورفاقه او ان الزهد لا يتم الا بالالتحاق بهم . فانه لما رأى العنصر العالماني (لان اتباع آمون لم يكونوا جميعهم رهباناً) متغلباً هناك كثيراً وان التجارة والكسب هما الغرض الذي يرمي اليه القوم اعتقد ان وادي النطرون لا يناسب عيشة الوحدة والاعتزال وعليه ترك هؤلاء الجماعة المنهمكين في اعمالهم حول بحيرات النطرون واعتزل مكاناً قصياً يبعد كثيراً عن هذا المحل حيث لا توجد شجرة او نخلة تطفيء حرقة حاجرته او تبرّد لظى قفاره . والذي يلقي نظره على الخرائط الفرنسوية يجد الوادي الذي كان فيه آمون والوادي الذي سكنه مكاريوس واسمهما سيتس ونطريا ـ مرسومين كانهما واد واحد والحقيقة انه يوجد فرق واضح بين الاثنين وتباين في الارتفاع بينهما كما اوضح ذلك مستر هوكر (مدير مصلحة المصلح) في خريطة له رسمها سنة ٩٦ اما الوادي الاعلى الذي يمتد الى الجنوب الشرقي فلم يكن له اسم يعرف به عند ما استوطنه مكاريوس ولكنه أطلق عليه فيما بعد اسم «سيتس» ومعناه موضع الارواح المقدسة وسبب هذا الاسم هو ان مكاريوس تبعه كثير من المريدين كما اتبعوا آمون وسكنوا في كهوف احتفروها لانفسهم وبقوا على معزل من اقليم وادي النطرون

وكانوا يتجشمون اتعابا كثيرة للحصول على الماء لطول الشقة ولم تكن لهم حرفة يحترفون بها سوى صنع السلال والمقاطف التي كانوا يتحصلون منها على مايساعدهم في معيشتهم الصعبة التي كانوا يظنونها أحسن عيشة في العالم توجد بينهم وبين الله اتصالا متيناً . ففي هذا المكان قضي مكاريوس حياته التي كانت كلم بينما كان آمون على مقربة منه يكد ويكدح مع جماعته في استخراج النطرون وكان يسمح لنفسه بالتطواف مرتين في السنة يصرف في كل مرة ستة ايام يسير فيها عرض الصحراء والوجه البحري لينظر امرأته ويسأل عن سلامتها . ولاريب في انه اتعب نفسه كثيراً واجهد ذاته اجهاداً مفرطاً ليكفر عما فرط منه من الاهمال والتغاضي وفرض على نفسه فرضاً صعبة كان يؤديها في خلوته . وليس يصعب على الفطن ان يتصور ما كان يعانيه هذا الناسك من العناء وقلق البال انتظاراً لاخبار ترد اليه من الارياف اثناء هذه المدة الطويلة التي صرفها في الجبال من سنة ٣٠٣ - ٣٢٢ . ومات آمون هذا في سنة ٣٤٥ بينما كان يراقب على بعد الجهاد المديم الفائدة التي جاهدته مصر في سبيل تحرير بلادها من عبودية الرومان وانتقام ذلك الامبراطور منهم انتقاما تقشعر منه الابدان لانهم جاهدوا في سبيل الحرية مع ان هذا الامبراطور كان قد ولد تحت رق العبودية والذل

الفصل الحادي عشر

الجهاد في سبيل الحرية . سنة ٢٨٢ ب.م

بعد ان قتل اوريليانوس استولى تاسيطس على العرش الروماني في اوربا وظل جالساً عليه مدة قصيرة اما مصر فكانت حينئذ تحت سلطة ارملة اوريليانوس التي جلست على سرير ملكها ثمانية شهور . ولما ان مات تاسيطس اتفق الجيش المحتل مصر على انتخاب القائد بروبوس الذي كان محبوبا من جيشه ومكرما عنده . ولما استتب له الامر في مصر غادرها الى اوربا ليضع يده على ولاياتها وليضم تحت لوائه كل المملكة الرومانية وفي اثناء غيابه انتهزت بقية من التدمريين - الذين قلنا انهم اخذوا مصر قبلا - هذه الفرصة وسعوا لاخذ مصر العليا واغتصابها من يد بروبوس فاضطر هذا ان يعود قافلا الى مصر ليرد عنها هذه الغارة الجديدة وليشن حربا عوانا يفتح به مدينتي قبطس (اوقفط) وبطولمايس من جديد . ومع ان الحرب استمرت زمناً لا سيما بين الطرفين الا ان بروبوس لم يكن ليغفل شؤون مصر والعمل على تحسين احوالها العمومية ومعاملة شعبها المنحوس برفق وعدل بعد ان ذاق هذا الشعب اصناف البلاء والحيف مدة طويلة . وفي سنة ٢٨٢ ب.م هجم عساكر بروبوس عليه واخذوا حياته غيلة خلفه كاروس والي مصر وهذا ايضاً مات سنة ٢٨٣ في حرب اقام سوقها ضد الفرس ولكنها أوقفت عند موته وعند ابناه كارينوس ونومريانوس وبعد ان حكما سنة واحدة كلها حروب